حدثنا الكبش فقال ...

المؤلف: محمد مزيوقا

رقم الإيداع القانوني: 2023MO0395

ردمك (ISBN): 978-9920-41-112-7

تاريخ الإصدار: 2023

الطبعة: الأولى

IMPRIMERIE : MZIOUKA POLY-SERVICE

TRAVAUX D'IMPRESSION ET DE PUBLICITE

يمكنكم الاتصال هاتفيا او الكترونيا بالناشر :

Email : Mz.polyservice@gmail.com

Téléphone : 0670214700

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

© All rights reserved

تـقـــــــديـم

حكاية كبش رواية استعارية على لسان حمل صار كبشا فزعيما ثم ذبيحا، منذ ولادته إلى حين ذبحه. مسار حياة حافل من الأحداث والمشاعر في حظيرة البؤس كما يسميها، في أسرة بمدشر وسط الجبال يعاني كل أفرادها من العوز والجهل وسوء المعاملة من الأب "الاقرع "

وقد اختار الروائي عالم الحيوان ليسرد على لسانه كثير من المقارنات و المآخذات على عالم الإنسان، هدا الذي لا يذكره على بألقابه "العنزة الآدمية" (البنت الراعية) والحيزبون (الام القاسية) والأقرع (الاب المفلس المقامر..) والشيخ (الطيب) و الكهل المتواطئ المنافق..

وقد تضمنت الرواية كثيرا من المشاعر والمواقف التي تعرفها حيوانات الحظيرة المطابقة لما لدى الإنسان تماما مع نوع من التماثل على الإنسان المنافق والأناني والدي يعاني نتيجة قلة عقله.

ولا يغيب عن الروائي الموضوع العاطفي المحرك لكثير من مشاعر الإعجاب والأنس والزعامة أيضا كما يضمنه كثيرا من ممارسات الانسان في السياسة وطلب العلم وتشغيل الأطفال، والتحكم الذكوري والحياة البئيسة في البادية..

وقد عمل الروائي على تحليل كثير من المشاعر الدفينة لدى الحيوان كما لدى الانسان كذئيبة الذئاب، ووفاء الكلاب، وبطء وسبات السلحفاة، وتناطح الأكباش إثباتا للزعامة، وحنان الأمهات والنساء عامة والحنين إلى الأم البعيدة والتعلق بها مدى الحياة.

والروائي بدلك يوظف الخيال ليقول حياة الانسان على لسان الحيوان من باب التغريب والتعجيب على عادة السرد الإنساني بهدف خلق المفارقة وتشويق المتلقي، مع ظلال واقعية مبطنة يستثمر فيها الروائي تجربته وخبرته بالمعيش اليومي لرعاة البادية بكثير من التفاصيل والتعاطف الضمني.

إنها رواية واقع وان تدثرت بلسان كبش في حظيرة قذرة لأسرة فقيرة

فاس في 01 يناير 2023

د. فتيحة عبد الله

حدثنا الكبش فقال ...

يقولون بأن الذين ولدوا في الخلاء غالبا ما يتميزون بالطبع المشاكس والبحث عن المتاعب، وخصوصا أبناء جنسي المطالبون بالاعتماد على أنفسهم منذ اللحظات الأولى لخروجهم من بطون أمهاتهم. لكنني أعتقد بأنني لم أكن كذلك على الإطلاق، فبعد أن وضعتني أمي في منتصف ربوة تغطيها أحراش تدل على أن الغابة قد مرت من هناك، حملتني العنزة الآدمية بين ذراعيها إلى حظيرة بدائية السياج وأمي تتبعها بلهفة خالية من القلق بحكم تجاربها المتعددة في إنجاب الخرفان .... كما أن ثقتها في صديقتها كانت مطلقة، وفي ركن قذرة أحجاره، أكملت والدتي لحس جسمي مما علق به منها، بينما انخرطت الفتاة الكاعب في صياح لا يخلو من مرح طفولي:

_أمي ... ! أمي...! لقد وضعت الحمراء حملها أخيرا!

كنت أحاول الوقوف على قوائمي الفتية، عندما لاحت مخلوقة تشبه التي حملتني من مكان ولادتي، لكنها أضخم منها حجما؛ وبعد أن تفحصتني بعيون يبدو منهما بريق شاحب، أشاحت بوجهها عني ثم توجهت نحو باب الحظيرة وهي تقول:

_مثيلاتها يلدن اثنين أو ثلاثة في بداية الربيع حتى يستفيد صغارهن من عشب صحي يساعدهم على النمو ، بينما تتأخر صاحبتنا دائما في الإنجاب ، وغالبا ما تأتينا بواحد لا يقل عنها بشاعة. سأطلب من والدك بيعها في أقرب الآجال، فهذا المسخ الهزيل الذي لا يختلف عن أطفال فقراء البشر المنتشرين في كل بلدان الدنيا قد يرفع قليلا من

سعرها في السوق. أما هي فإن الذئاب لن ترضى بها كطعام ...! ويا ليتها فعلت بها ما تفعله بصغار الجديان!

_تبا لك أيتها العجوز الشمطاء ! قالت أمي. يا قليلة الأصل والخير! لقد أنجبت لكم قطيعا لو أنكم احتفظتم به لأصبحتم من الأثرياء! لكن ارتباطكم بالبؤس وثيق. ولن يفترق معكم سوى بالوفاة! كم عدد خرفاني الذين أخذتم إلى الأسواق قبل فطامهم؟ وكم حلبتم من ضرعي؟ وما هي كمية السمن التي استهلكتموها على حساب صحتي؟ وكم عدد جزات الصوف التي أخذتم من ظهري لوقايتكم من البرد فرشا ولباسا؟ قوم جاحدون فعلا! أما أنت فما أجملك (قالتها بتهكم) محل الجزارة أفضل من العيش في حضيرتكم! ولقاء ذئبة جائعة أهون من الاصطباح على وجهك الذي غادره الجمال إلى مكان لن يعود منه أبدا! الذئبة تقضي غرضها بمهنية فتريح الأشقياء وتنفع صغارها! أما أنتم فالقتل عندكم يأتي بالتقسيط الممل! يا ليت هذا الصغير كان من نصيبها حتى يزداد غيضكم، وخصوصا زوجك الأقرع الذي يأخذ منكم كل شيء، ويترك لكم التعب والشقاء فقط!

نحن لسنا مثل البشر الذين ينتظرون أسابيع لنطق الحروف بشكل يثير الضحك، وشهورا للقيام بحركة المشي الأولى، وأعواما لفهم الأمور. نحن نواجه متطلبات الحياة منذ لحظات تواجدنا فوق أديم الأرض، ولذلك نعيش فوقه أقصر مما يعيشه الإنسان لأن نسبة الموت الطبيعي بسبب التقدم في السن تكاد تنعدم، فنحن خلقنا لنذبح. لقد فهمت الحوار الذي دار بين النعجة البشرية وأمي، وكأنني تعلمت الكلام في بطنها، فلم أجد بدا من المشاركة:

_قد يسمعونك يا أمي فيؤذونك ! وهل تفضلين موتي على الحياة بجانبك في أول يوم من تواجدي فوق الأرض؟

_إنهم أغبياء يا صغيري ! فأصواتنا واحتجاجاتنا يسمونها بالثغاء. نحن نفهم أقوالهم، ونشهد على أفعالهم، وهم لا يدركون. أما بالنسبة للموت فإنك ميت لا محالة! ستكتشف بأنهم يحموننا من الذئب ليفتكوا بنا على طريقتهم، وكل ما ستأكله من طعام يوفرونه لك؛ سيكون ثمنه أنت! هكذا تقول تاريخ الضأن. اقترب قبل وصول الحيزبون بإنائها الذي سيصادر حقك في حليبي، ولن يبقي لك شيء.

حليب أمي دافئ ولذيذ، لقد استمتعت وأنا أمتص من ضرعها رحيق القوة والحياة، لكن المتعة لم تدم طويلا. أحسست برجل خشنة تفصلني عن مصدر رزقي بعنف لينتصب إناء معدني تحت ضرع أمي المدرار. لقد كانت الحيزبون رفقة ابنتها العنزة التي أطلقنا عليها لقبا من فصيلتنا تيمنا بطباعنا النقية، وعاداتنا النبيلة. العنزة هي المخلوق الآدمي الوحيد الذي أحبه كل سكان الحظيرة، ومكوثها مع أمها عوض الرجوع إلى المرعى، كان بهدف الحفاظ على بعض الحليب في ضرع أمي:

_أتركي له بعضا من حليب أمه ! ألا ترين بأنه نحيل جدا، وقد يفارق الحياة إذا لم يجد ما يرضعه.

_أنا أعرف شغلي جيدا...فهل تعرفين شغلك ؟ عودي بسرعة إلى المرعى! فقد يصيب القطيع مكروه؛ وسوف تتحملين المسؤولية لوحدك أمام والدك!

_لقد تركت القطيع في عهدة الأحول الذي التزم بحراسته إلى حين عودتي.

_وإذا ما وصل الخبر إلى أبيك ، فتلك قضية أخرى. قالت الأم بنبرة لا تخلو من تهكم.

أطلقت العنزة ساقيها للريح عائدة إلى قطيعها، بينما أكملت النعجة الآدمية استنزاف حليب أمي، ثم قامت متذمرة من الكمية القليلة التي جاد بها الضرع الهزيل، وانصرفت وهي تشتم الجميع، وأمي تبادلها شتيمة بشتائم. أمي تسمع وتفهم، بينما الشمطاء لا تدرك ما يقال لها.

_اقترب مني أيها الشقي ! وانتظر حتى يجتمع الحليب في ضرعي حتى لا تبيت جائعا في يومك الأول، وما أكثر أيام الجوع التي تنتظرك.

تزامنت فترة امتلاء الضرع مع عودة القطيع إلى الحظيرة، ورغم العياء والإجهاد الظاهرين على ملامح الماعز والتيوس والنعاج والأكباش، فإن أمي كان لها نصيب من تبريكات القطيع؛ حتى أن بعض النعاج والماعز أطلقن زغاريد احتفاء بقدومي.

_وهل تعتقدون بأن حملي مولود في بلاد الفرنجة التي يتم فيها الاحتفال بالأغنام ؟ قالت أمي ضاحكة.

_كل ونصيبه ! ردت إحدى النعاج ...لقد رأيتهم في صندوق العجب عند مالكي السابق؛ نعاج كالأميرات، وأكباش كالملوك، وخرفان كأطفال الإفرنج. نظافة وأكل ومرح ولعب دائم في مروج خضراء لا يصيبها الجفاف أبدا.

_نحن أصلا ليست لنا حياة صالحة للعيش ، لأننا من نصيب الأقرع - صاحت عنزة -هنيئا لك بالمولود الجديد ! وإذا كانت الحيزبون قد أجهزت على حليبك فضرعي موجود ... مرحبا فالحيوانات لبعضها!

_شكرا لك يا غزالة الماعز ! ردت أمي ممتنة. أعتقد بأن ضرعي سيفي بالغرض. هيا أيها العفريت! اقترب وارضع!

أثناء رضاعي سمعت كبشا خشن الصوت يقول لصاحبه:

_ليس في الأمر شك الخروف ابني ...وأنا والده.

_قلل الله حياءك أيها الأجرب المعتوه ! ...صاحت أمي بصوت حاد .... حتى إن انقرضت الأكباش من على وجه الأرض فلن أرضى بك زوجا...! لو كان والده على قيد الحياة لأدبك، ولكسر جمجمتك بقرونه.

_إذا لم أكن أنا فقد يكون أخي أيتها النعجة الشمطاء ! نحن نتسامر كأكباش فيما بيننا، فأغلقي أذنيك .... واهتمي بمولودك .... ودعي عنك كلام الذكور!

_تتكلم كبني البشر أيها الأجرب ! أنسيت بأننا متساوون في الحظيرة والمرعى، وأمام سكاكين الجزارين وأنياب الذئبة الشهباء! فابحث لك عن موضوع آخر؛ تداري به جوعك وحرمانك وإعراض النعاج عنك.

_نعاج الأقرع كلهن متشابهات ... والجمال بين صفوفهن يكاد ينعدم.

_تبا لك أيها الأجرب القليل الأدب ! ...قال خروف صغير السن، لكنه ضخم الجثة، وبقربه نعجة شابة ... أنا أدعوك للنزال بسبب كلامك السمج الذي يقلل من جمال ساكنات حظيرتنا!

بسرعة تم تحويل ساحة الحظيرة إلى حلبة للمصارعة، بحيث خصص للإناث ذوات الحملان والجديان مكان يستطعن من خلاله تتبع أطوار النزال بعيدا عن خطر قد تنتجه ضربة طائشة، بينما ملأ الآخرون أطراف الساحة، لتنطلق الرهانات حول نتيجة مبارزة بين كبش خبر أساليب الصراع واكتسب صيتا في هذا المجال. وخروف يعتمد على قوته وسرعته؛ طمعا في نصر قد يرفعه إلى درجة أعلى داخل مجموعة لا يسمع فيها للضعيف صوت ولا يؤخذ برأيه.

طالت المناطحة بين المتصارعين، وانتشر ظلام جزئي في أرجاء الحظيرة، فقال الكبش العجوز وهو يتراجع إلى الخلف طمعا في توجيه ضربة تحسم المعركة لصالحه:

_ما رأيك في تأجيل النزال إلى يوم غد ؟ وسيكون ذلك أمام باقي القطعان!

فعل الخروف الشاب ما فعله غريمه المسن، وتراجع بدوره إلى الوراء في إطار مناورة تسعى إلى ترسيخ موقعه داخل القطيع:

_صراعاتنا الداخلية يجب أن تحسم بيننا ، وفي حظيرتنا ! ..... أما هناك في الخلاء فيجب أن نكون قرنا واحدا ضد باقي القرون.

سمع دوي تلاقي الرأسين في الوسط ولا أحد من المتناطحين ترنح، فانتقلا إلى الشوط الثاني ثم الثالث

_لا تنسوا بأنكم أخوين ! صاح صوت من أقصى الحظيرة.

_لم يعد للأخوة معنى أيها الأب العجوز ... ! الأخوة شعار يرفعه أصحابنا الذين يتحكمون في رقابنا فقط عندما تلتقي مصالحهم ضدنا...! فاتركونا من الشعارات الآدمية .... ولنحسم المعركة هذه الليلة ...! فقد طالت زعامة هذا العجوز!

استحسنت الأغلبية كلام الخروف الطموح، ووافقوا على استمرار النزال، لأن الليل طويل، وتأثيثه بمعركة تجمع ما بين الحربي والسياسي؛ يعتبر بمثابة سهرة تطرد القنط وتعجل بقدوم النوم. لكن السمر التناطحي توقف بمجرد رؤية ضوء يقترب؛ في زمن قياسي غابت آثار المعركة، وعاد الهدوء ليعم في رحاب فضاء تفوح منه رائحة غبار تجاوزت حدود السياج.

_إنه الأقرع صاحب العمامة ! ...قال الغريم المتقدم في السن، وقدومه في الليل يعني البحث عن سلعة. لقد حان دوري لتوديعكم. معذرة لمن أخطأت في حقه. أعتقد بأنني المقصود بهذه الزيارة الليلية، فقد طال مكوثي بينكم.

تنقل ضوء المصباح اليدوي عبر الحظيرة، وتوقف عند أمي التي احتضنتني بين قوائمها، وعند الكبش الذي كان يسعى إلى تأكيد زعامته ثم ابتعد لينطلق الكلام من جديد:

_أراهن بأننا سنساق قريبا إلى السوق ...أنا وفلانة ورضيعها ...ولذلك أعلن بأنني أتنازل عن الزعامة في حظيرة الأقرع.

_وهل ستوافق الحيزبون على هذا الإجراء ؟

_أعتقد بأنها تكمد ضربات تلقتها بسبب معارضتها للأمر...لقد سمعتها تصرخ ...هي مثلنا ضحية من ضحايا الأقرع ، ومعاناتها معه مضاعفة بحكم التصاقها به كزوجة واحدة ...إضافة إلى طول لسانها.

_ومن يمنعها من الافتراق عنه والبحث عن زوج آخر ؟ ذكران البشر يملؤون الأسواق والمنتديات.

_للبشر قوانينهم المعقدة ،وفي ذلك يكمن شقاؤهم ، ستعرف الحكاية فيما بعد.

استغرقت في الرضاعة إلى أن غلبني النوم، وعند الصباح وجدت الحظيرة شبه فارغة؛ بحكم تواجدي فيها رفقة أمي والزعيم السابق.... وكمية لا بأس بها من التبن أمامها.

_لقد حان دورنا قريبا سنساق إلى السوق ...أنا سيشتريني جزار أو صاحب مناسبة آدمية ، وأنت ستكونين من نصيب فلاح بفضل خروفك هذا...قال الزعيم المخلوع وهو ينظر إلي بعطف ، وأنا أطرد النوم من جفوني باحثا عن ضرع أمي.

انهمكت أمي في الأكل، وهي تلعن الحيزبون وزوجها على كرمهما الزائف:

_يعتقدون بأن العلف سيقوينا يوم السوق ، لكنني أفعل ذلك من أجل حليب ابني فقط ...واستمرت في الأكل ، بينما أحجم الكبش عن فعل ذلك في بداية اليوم.

قضيت يومي بين الرضاعة والتجوال داخل الحظيرة المسيجة بأحجار اكتسبت لونا أغبر، وتعلوها أغصان يابسة. أمي كانت ساهمة وواجمة، لكن عيناها لم تفارقا حركاتي وسكناتي. أما عمي فقد انخرط في العلف ناسيا أو متناسيا ما ينتظره بعد أن نال منه الجوع.... بين الفينة والأخرى تطل علينا الحيزبون حاملة إلينا بعض قشور الخضر والفواكه المحلية التي لم تعد صالحة للاستهلاك الادمي، مع كمية قليلة من شعير ممزوج بالملح، دون إغفال ملء وعاء طيني بالماء.... أمي كانت تراقب بصمت، وعمي يلتهم ما جادت به الشمطاء التهاما.

_لقد أضافت صاحبتنا ملحا إلى الطعام المقدم لنا.

_لتشجيعك على الأكل الذي سيشعرك بالعطش، وأثناء علفك وشربك سيزداد وزنك ولو بشكل مؤقت ، لكن الجزارين يعرفون ألاعيب دهاة البدو...ستباع بثمن بخس أيها العجوز ! .... قالت أمي ضاحكة.

_أما أنت ...فسيتنافس كبار التجار من أجل شرائك كما كان يفعل أسلافهم في أسواق النخاسة...لولا وجود آخر العنقود معك ، لما ساومك أحد ، ولتركتك الحيزبون في مرجة رهن إشارة الذئاب كما فعلت مع أتان زوجها السابقة.

_ومن أخبرك بأن هذا الصغير هو آخر العنقود ؟ هل أصبحت متخصصا في هذا الشأن؟ أم أنك تقيس على نفسك؟

ساد جو من المرح بين أمي وعمي في يوم راحتنا الذي كان استثنائيا. أطل علينا صاحب العمامة وأصدر لزوجته أمرا بصوت خافت كأنه يخشى أن نسمعه، ثم انصرف.

لم يمض وقت طويل حتى أطلت علينا المرأة وفي يدها لوح مغروس بقطع أسلاك صغيرة، لتشرع في تمشيط صوف أمي وتنقيته مما علق به من أشواك وحشرات قبل انتقالها إلى عمي.

_العجوز حلاقة ماهرة... ! قال الكبش ضاحكا.

_نعم ...لقد صرت أنيقا ...وستثير إعجاب النعاج في سوق الضأن.

_أما أنت فسيتغنى بجمالك كل أكباش السوق ، كما يفعل شعراء البشر مع حسناواتهم ! رد عمي مقهقها....

ابتسمت صاحبة البيت بعد انتهائها من عملية التمشيط، ثم التفتت نحو أمي قائلة:

_ها أنت قد استرجعت شبابك من جديد أيتها النعجة الجرباء!

_أما أنت فما أجملك ! ردت أمي باستهزاء.

لم ترد الحيزبون على تعليق أمي التي انتظرت ذهابها لترفع رأسها نحو عمي:

_فيك شيء من أخيك بعد عملية تجميلك ...أما هو فقد كان جماله طبيعيا.

_وأنت أيضا تشبهين أختك الحسناء التي باعها الأقرع في الموسم الماضي ...كان ذلك بعد زواجي بها بيوم واحد ...ومنذ ذلك الحين وأنا أحلم بالزواج بك ...لكنني لم أجد منك سوى الصد.

_لقد انتهى كل شيء أيها العجوز ! غدا سيأخذنا الأقرع إلى السوق .... أنت مذبوح لا محالة .... وقد أرى لحمك معروضا في أحد محلات الجزارة قبل مغادرتنا للسوق رفقة مالكنا الجديد.

_أمي ... ! لماذا يذبحوننا؟ هل العشب لا يكفيهم؟

_هم يقتربون من المخلوقات العاشبة ؛ بحكم غلاء أسعار لحومنا التي أصبحت تستهلك فقط في مناسباتهم المتميزة. إنهم يذبحوننا عند الولادة والزواج والممات ...أفراحهم وأتراحهم ...ضحكهم وبكاؤهم ...كل مناسباتهم مرتبطة بدمائنا ولحومنا.

مر النصف الثاني من اليوم رتيبا.... أكل قليل وأحاديث كثيرة، ورضاعة استمتعت بها طوال اليوم، لأن العجوز لم تقترب من حليب أ مي.

_أعتقد بأن الأقرع قد أوصاها بعدم حلبي ،حتى يظهر ضرعي منتفخا في السوق ،وقد يشجع مظهره المتسوقين على شرائي.

_أتمنى لك مالكا ثريا يغنيك عن التسكع في الهضاب والروابي عن عشب أصبح مفقودا.

_أنا أفضل العيش في الهواء الطلق...فالأكل المتوفر في الحظائر المغلقة يخنق الأنفاس ، وسيعجل حتما بنمو جسم صغيري حتى يساق إلى المجزرة في أقرب الآجال ...لقد حدثتني عن ذلك نعجة تعرفت عليها في المرعى، عاشت تجربة الحضائر المغلقة التي لا تختلف كثيرا عن سجون بني آدم الذين يطلقون على تلك العملية لقب التسمين.

_لقد أصبح التسمين هوايتهم المفضلة ،لأن أعدادهم في ارتفاع ،والطلب على لحومنا يزداد يوما بعد يوم، لكن الأمر لم يعد يعنيني ...فأنا مذبوح لا محالة ... ! قال الزعيم الذي لم يعد زعيما بإرادة الأقرع.

_الموت راحة كبرى ،لأنه سيطرد القلق والهواجس من نفسك. لن تحس بعد ذلك بجوع ولا عطش، ولن تتعرض للإهانات البشرية، ولن يزورك الألم في جسمك الذي انتهت صلاحيته.... قالت أمي ضاحكة، فرد عليها الكبش بضحكة مماثلة، وأنا أنظر إليهما ببلاهة.

مع اقتراب غروب الشمس، وصل القطيع إلى الحظيرة والعنزة تتبعه باكية وداعية:

_اللهم أرحني من هذا العذاب ... ! اللهم أرحني من هذا العذاب ولو بالموت....

_شيء ما قد حدث ! قال الكبش العجوز بنبرة لا تخلو من قلق.

بعد استقرار سكان الحظيرة في مواضعهم التي اعتادوا عليها، لاحظت أمي بأن العنزة ذات الجديين يرافقها جدي واحد فقط...فتوجهت نحوها بالمواساة قائلة:

_هل فعلتها الذئبة الشهباء ثانية...؟ كان الله في عونك!

_نعم يا أختاه ! لقد فعلتها أمام عيناي وأنظار هذا القطيع النذل الذي كان بإمكانه إبعادها ولو بالثغاء ...! لكن القطيع يبقى قطيعا.

_ومتى كان للقطيع رأي موحد ؟ صاح الخروف الضخم.

_أسكت أيها الجبان ! كان بإمكانك التصدي للذئبة، خصوصا وأنه اليوم الأول لزعامتك.

_هذا الأمر موكول لوالدها صاحب اللحية الكثة...والصياح المستمر...

لم يكمل الزعيم الجديد جملته حتى تلقى ضربة قوية من التيس الذي ظل صامتا على غير عادته، لتنشب معركة حامية الوطيس، سلاحها القرون، ولتنطلق الرهانات والتحليلات حول المنتصر المحتمل بين أفراد القطيع، باستثناء تيس عجوز دعا في البداية إلى ضبط النفس والتحلي بفضيلة الحوار، قبل أن ينخرط في تتبع أطوار المعركة.

لاح ضوء عند مدخل الحظيرة، فتوقفت المبارزة وانتشر الصمت، لتعم الدهشة بين أفراد القطيع وهم يرون العنزة الآدمية تحل ضيفة عليهم. لقد دفعها والدها الأقرع إلى وسط الأنعام، ثم انصرف دون أن ينبس ببنت شفة.

_المسكينة تؤدي ثمن تفرقتكم أيها الأنذال ! قالت العنزة الثكلى باكية ...أعتقد بأن الأقرع قد حملها مسؤولية استشهاد ابني، ولذلك ضربها ضربا مبرحا كما يبدو، وها هو يعاقبها بالمبيت معنا ...! فاتركوا لها مكانا يحميها من البرد، لأن المخلوقات الآدمية ليس لها جلد سميك ولا صوف ولا وبر.

توجهت الراعية الشابة نحونا في أقصى الحظيرة، وجسمها النحيل يرتعد من البرد والغيض وآثار الضرب، وأخذت تبحث وسط الظلام عن شيء ما.

فهمت أمي بأن العنزة تبحث عما تأكله؛ لأن التجويع باب من أبواب العقاب لدى البشر ...فأبعدتني برفق وأطلقت حليبها في فم العنزة المنصوب كما تفعل معها العنزات والنعاج في الخلاء أمام استحسان الجميع.

_تقنيات التغذية متطورة لدينا مقارنة مع المخلوقات الآدمية التي أفرطت في تعقيد نمط عيشها...قال عمي.

_إذا كان ابنك في حاجة إلى حليب ...فضرعي موجود ...يوجد ما يكفي ...قالت العنزة الثكلى.....

_الخير موجود ... ! ردت أمي .... فالحيزبون لم تحلبني في هذا اليوم.

بعد أن شبعت العنزة من حليب أمي، تمددت وهي تتنهد وتلعن الذئبة ووالدها وتطلب من الله الرحيل من المنزل ولو بالموت.

_كلنا نطلب نفس الطلب ... ! قالت أمي موجهة كلامها للعنزة التي نظرت إليها نظرة غريبة، ثم استغرقت في النوم؛ لتخبرني أمي بأن العنزة الآدمية تحس بنا كما نحس بها.

أيقظتني أمي بركلة خفيفة دون إصدار أي صوت، فتحت عيناي قبالة ضوء ساطع يلمع في وسط الليل وكل أهل الحظيرة نيام، ففهمت بأن الأمر متعلق بالأقرع صاحب العمامة الذي ينشر مصباحه الرعب .... تم ربط الكبش العجوز من قرنيه، وأمي من عنقها، وبعد ذلك أحسست بيدين حانيتين تحملاني وتضماني إلى صدر صغير .... فأدركت بأن ضيفتنا العنزة هي التي تقوم بذلك، ووسط الجمع الذي يبدو نائما تم شق الطريق في صمت إلى خارج الحظيرة التي دبت فيها الحياة ونحن نغادرها.

_لقد كانوا جميعا مستيقظين ... ! لكن الكلام في حضرة الأقرع يقابله قرع بالعصا. هو لا يحب الشياه، لكنه متيم بالدراهم التي تأتيه منها .... همست أمي.

وضعتني العنزة في عين خرج موضوع فوق أتان رأيتها مربوطة قرب الدار يوم ولادتي ... بعد تثبيت رأسي والدتي وعمي بمؤخرة البردعة بواسطة حبل، إمتطى الأقرع صهوة الدابة لتنطلق رحلة طويلة أشرقت خلالها شمس محرقة، والتقينا أثناءها بأناس آخرين...منهم من يمشي على قدميه ...ومنهم من تحمله البهائم ... ومنهم من يمتطي دواب معدنية تسمى بالسيارات ...طريق كلها غبار تزينه آثار الحوافر والأقدام والعجلات .... البشر يحيون بعضهم البعض ...والحيوانات تفعل نفس الشيء .... نحن نفهم ما يقولون ...وهم لا يفهمون.

تكاثرت الدواب والأنعام على الطريق، وبحركة من لجام الأتان انعطفت هذه الأخيرة حيث أريد لها...لنجد أنفسنا قبالة عين ماء جارية تصب في حوض ضخم...نزل الأقرع

فغسل أطرافه ومسح على رأسه الذي أثار ضحكي ببقعه البيضاء المنتشرة على فروة رأسه .... وبعد أن روى عطشه أزال لجام الأتان التي طال شربها، وكذلك الشأن بالنسبة لأمي وللكبش العجوز، ليحين دوري في رضاعة كنت أنتظرها بلهفة وأنا في خرج خنق أنفاسي.

_لو أن الأقرع فهم معنى ضحكتك حول رأسه لخنقك بيديه ، ولأطعم لحمك للكلاب ...قالت أمي غاضبة...هو يقبل كل التسميات ، ويرضى بجل الإهانات ، لكن مناداته بالأقرع تثير عراكا فوريا بين المنادى عليه والمنادى.

نبع الماء قريب من السوق حتى أن الأقرع لم يمتط ظهر الأتان، بل اكتفى بجرها من لجامها فتبعته طائعة ونحن نسير أمامهما بانضباط تام.

_حذاري من الشغب أمام الأقرع ! ...قال الكبش العجوز محذرا أمي بما قد يقع؛ فعصاه تسبق لسانه...

_أعرف هذا يا صديقي ! ردت أمي بهمس من يسلم بمصيره.

_ما أجملك وما أبهاك حين تقررين الكلام بلطف ! لماذا كنت تصرين على الجفاء عندما كنا نعيش تحت سقف واحد في حظيرة البؤس؟

_أعرف بأنك الأخ الأصغر لزوجي. ومن واجبي أن أكون لطيفة معك في الأوقات الأخيرة التي تجمعنا. أما الأمور الأخرى، فلا وألف لا! أنت وصاحبنا الأقرع متشابهين إلى حد بعيد...! قد أكون مخطئة، لكن الأمور هكذا.....! انطلقت مني ضحكة تجاهلها الاثنان، قطعنا الطريق المتبقية للوصول إلى السوق في صمت تام. أخذ صاحبنا أتانه إلى مكان مسيج بأسلاك شائكة، وبعد أن دفع رسما سمح له بإدخالها إلى هناك عاد إلينا بوجه مكفهر لأن الرسم قد ارتفع.

_أتان الأقرع ستعود حبلى من السوق ! قالت أمي ضاحكة.

_وفي ذلك تعويض له عما أنفق من مال مقابل دخولها إلى هناك.

أثناء ضحك أمي وعمي، نزلت على الأخير ضربة من عصا الأقرع بسبب تأخر في المشي؛ تقوس ظهر المضروب من الألم، وتبولت على الأرض خوفا، وأمي تسير وعيناها لا تفارق جسمي النحيل وأنا أمشي بجانبها.

في مكان بيع المواشي تحولنا إلى سلعة حقيقية. عدد من الناس سلموا على صاحبنا بألفة قبل أن تنطلق المفاوضات حول أسعارنا. الأقرع يريد التخلص منا دفعة واحدة حتى يرتاح من صداعنا ومصاريفنا المتنوعة على حد قوله، لكن الزبائن يتشبثون بالرغبة في شراء كل قطعة على حدة.... أنا وأمي قطعة واحدة!...

رضخ الأقرع للأمر الواقع على مضض، وقرر بيعنا بالتقسيط، ولن أخفيكم سرا إن أخبرتكم بأن عددا لا يستهان به من المتسوقين استهواهم مظهر الكبش العجوز الممشوطة صوفه أكثر مني ومن أمي.

_هيا يا فلان ! أطلق لنا الكبش، ودعنا نسترزق الله به.... !

_لكن الثمن الذي اقترحته علي لا يغطي تكاليف علفه ! فأين المجهودات التي بذلت لتربيته؟ وأين هامش الربح الذي سأتمكن بواسطته من إطعام فيلق العيال الذي يحيط بي من كل جانب؟ ...أقسم بالله العلي العظيم.....

_لا تقسم ! ...فقد صدقتك.... وها هو مبلغ إضافي إلى ما اقترحت!

_لا تصدقه ! صاح الكبش العجوز.... فإنه لم يصرف علينا فلسا...والفضل في وصول جثتي الى ما هي عليه حالياً يعود بعد الله لأعشاب الخلاء، ومجهودات العنزة الآدمية .... فلا يغرنك صوفي الممشوط!...

نظر الأقرع إلى الكبش العجوز وكأنه فهم ما قيل في حقه، رفع عصاه ليضربه، ثم أحجم عن فعل ذلك؛ مقدرا بأن ذلك سيفسد البيع.

_اسمع أيها الصديق ... ! لهذا الكبش الجميل مكانة خاصة في قلبي، ولولا الحاجة الملحة إلى المال لما اضطررت لبيعه، لأن جل أفراد قطيعي من سلالته...! أضف مبلغا قليلا، وخذ الكبش ... فإنك لن تندم!

_ألا لعنة الله على الكاذبين ! صاحت أمي .... هذا الكبش كان منبوذا من جل نعاج الحظيرة!

سلط الأقرع نظره على أمي وكأنه يحذرها من قول لا يفهمه قبل أن يستعجل المشتري في إبرام الصفقة.

بيع الكبش بعد أخذ ورد ...وأثناء جره من قبل مالكه الجديد .... خاطبته أمي قائلة:

_أيها العجوز ! لقد كنت عزيزا رغم تجافينا ...فأنت عم لجل بناتي وأبنائي .... وفي العديد من الأحيان كنت أفكر في اتخاذك زوجا بعد أخيك ...لكن بشاعتك كانت تصدني.... أتمنى لك حياة سعيدة في الدار الآخرة!

_شكرا لك أيتها النعجة التي تلاعبات بعواطفي... لن أخفيك سرا بأنني قد تعلقت بك منذ بيع أخي .....لكن الأنثى لها أسبابها ...قال الكبش العجوز وهو يتبع صاحبه الجديد الذي يتدلى من حزامه كيس تظهر في أعلاه مقابض سكاكين.

ظهرت علامات الرضى على الأقرع بعد أن توصل بثمن الكبش؛ لقد اعتبر البيع جيدا ...ولذلك اشترى لنفسه قنينة مشروب بارد من بائع متجول، وأشعل سيجارة نفث دخانها بنشوة وقوة .... ثم نظر إلينا ولم يبتسم.

_تعال لترضع أيها الشقي ! ...قالت أمي بنبرة ذليلة.... واستعد للعودة إلى ديار البؤس، فإننا لن نباع اليوم، السوق مليء بالنعاج القوية والحملان الجميلة، والعرض أكبر من الطلب، كما أن الأقرع راض عن صفقته الأولى!

_هل أصبحت محللة اقتصادية أيتها العجوز ؟ ...قال صوت أنثوي ضاحك تبين بأنه لنعجة تباع في الجوار.

_العجوز هي أمك ! ...ردت أمي بغضب...لولا الخوف من هذا الأقرع الممسك بعصاه لأدبتك!

_أنا أعرف الأقرع كما تعرفينه أنت وأمي هي أمك أجاب الصوت باستياء.

تجاهلت أمي نظرات الأقرع الرهيبة، واستدارت نحو مصدر الصوت لتتعرف على أختها التي كانت تلقب بملكة جمال الحظيرة وجمالها أدى إلى نشوب معارك طاحنة بين الأكباش.

_كيف حالك يا أختاه... ! قالت أمي بشوق.

_في حالة جيدة كما ترين ! لكنني قلقة على مستقبل خروفاي بعد أن قرر أصحابنا بيعنا.

_تظهر عليك آثار النعمة. فلماذا قرروا بيعك؟

_أعتقد بأنهم في حاجة إلى المال من أجل تمدرس أبنائهم ...وسداد ديون متراكمة بسبب قروض أخذوها من الأبناك لمواجهة متطلبات الحقول التي أصبحت خاضعة لسلطة المال مثلها مثل الانسان...لقد تركت صديقتي الآدمية تبكي على فراقي ...لكن ما باليد حيلة ...وكيف حال العنزة الآدمية ؟

_المسكينة لا زالت تعاني كما تركتها ! بالأمس فقط قضت الليلة معنا، بعد تعرضها لضرب مبرح كالعادة.

_هل افترست الذئبة الشهباء حملا أم جديا ؟

_نعم ...جدي فلانة.

_تلك البلهاء أتذكرها جيدا ...لا تحرس أطفالها بشكل جيد...لأنها غالبا ما تكون مشغولة بإغواء تيوس القطعان الأخرى.

_تلك حريتها الشخصية...لكنها لطيفة وطيبة القلب ...وأنت ... ! حدثيني عن نفسك!

_بيعي من قبل الأقرع كان بمثابة انتقال من الجحيم إلى النعيم ،علف صحي ، وعشب شهي ، وهواء نقي ، وكبش حنون ، ومالكون لا يعترفون بالعنف لحل مشاكل القطيع ...حتى إنهم عندما يقررون ذبح أبنائنا ،فإنهم يأخذونهم بعيدا عن أعيننا ...أفضل الموت رفقة حملاي على العودة لحضيرة البؤس والشقاء.

_لا تقلقي حول هذا الشأن ، فالجائحة قد ضربت بؤساء الأهالي ...الكل يبيع ولا أحد يفكر في الشراء.

أثناء حديث الشوق والحنين بين الأختين، كان الحوار الآدمي يدور حول صفقة لشراء خالتي وابنيها.... لقد تمت الأمور بسرعة، وسيقت النعجة رفقة حمليها نحو مجهول جديد دون إكمال الحديث الأسري. رأيت أمي تذرف دمعتين من مقلتيها الواسعتين، ففقدت شهية الرضاعة.

طال انتظار الأقرع ولم يتقدم أحد لشرائنا، وحتى الذين قدموا عروضا أعرضوا عن القيام بمجهود طمعا في تنازل المالك .....وبما أن الأقرع عنيد، فقد قرر إعادتنا إلى ديار البؤس راضيا عن صفقته الأولى. ضرب أمي ضربة موجعة قبل أن يأمرها بالتحرك، فسبقته طائعة وأنا بجانبها .... أثناء مرورنا قرب محلات الجزارة، رأيت رأس عمي معلقا في مكان ظاهر ...فأصابني رعب شديد منعني من الحركة.

_لا تخف يا بني ...! فتلك طبيعة الأشياء. بعد الموت تغيب كل أنواع الألم، كما أنك صغير السن، ولحمك لا يستهوي البشر المفترس.... أوان ذبحك لم يحن بعد، فاطمئن!

_يا ليت أحد المتسوقين يشتري رأس عمي حتى يجنبه العرض المهين الذي يزرع الرعب في نفوس الأغنام.

_ستعرف ألاعيب الجزارين فيما بعد ...فرأس عمك سيكون له الفضل في بيع كمية من لحم النعاج ...كل اللحوم التي ستباع في المحل، سيقسم الجزار بأنها لصاحب الرأس الضخم...رأس عمك أصبح طعما للباحثين عن اللحم الجيد ...فالتصق بي حتى لا يدهسك أحد...ولا تلتفت خلفك ... ! وكذلك فعلت.

عند مخرج السوق ربط الأقرع أمي إلى جذع شجرة زيتون متهالكة، ثم غاب في الزحام ليعود إلينا ومعه الأتان محملة ببعض الخضر والفواكه ولفافة لحم، وبجانبه شاب تطوع بإيصال الأتان بحمولتها إلى المدشر مقابل عمولة رمزية، وعبارات شكر كثير:

_أيها الشاب ! ...قال الأقرع بلطف.... أبلغ أهل الدار بأن أمرا طارئا فرض علي السفر نحو المدينة، وبأنني سأعود في المساء .... وبعد أن رتب ما اقتناه في الخرج، ترك

لي مكانا في إحدى الكفتين حيث ألقى بي هناك قبل أن يكيل للأتان ركلة قصد حثها على التحرك.... ثم ذاب في زحام السوق.

في طريق العودة أعترف بأن الشاب كان لطيفا معنا نحن الثلاثة (الأتان ...وأمي...وأنا) لقد أخذنا للعين الجارية قبل رحلة العودة، وهناك استغرقت أمي والأتان في شرب مقرون بلهفة بعد فترة من عرض طويل تحت شمس محرقة.... كما أنه لم يركب على ظهر الدابة سوى مسافة قصيرة، تمكن فيها من استرجاع أنفاسه المقطوعة بالحرارة والتدخين .... وعند اقترابه من حظيرة البؤس نادى:

_يا خالتي فلانة... ! يا خالتي فلانة ...ثم انصرف.

لم تخرج إلينا ربة البيت من باب المنزل، بل أطلت علينا من جهة الخلاء، وقبل الشروع في إنزال حمولة الأتان، نادت على الشاب طالبة منه العودة لشرب الشاي، لكن هذا الأخير اعتذر ولم يعد.

_ها أنتما قد عدتما يا وجهي الشقاء ! كنت أعتقد بأن الأقرع سيبيعكما بأبخس الأثمان، لكنه لم يفعل. أعتقد بأنه باع الكبش العجوز بثمن جيد، ولذلك سافر نحو المدينة ولن يعود إلا مفلسا ...سينفق ثمن الكبش على نزواته، تم سيأتي ليكذب علي. قد يدعي بأنه تعرض للسرقة.... وقد يقول بأنه دفع أتعاب المحامي الذي يترافع عنه في دعاوى قضائية لا تنتهي.... وقد يقول ...وقد يقول.... سأتظاهر بتصديقه إلى يوم الحساب.

أنزلتني برفق من كفة الخرج ووضعتني قرب أمي لأشرع فورا في الرضاعة... بينما انخرطت الحيزبون في التعليق على مقتنيات زوجها من لحم وخضر وفواكه.

_سلالة الجوع ...قالت وهي تسوق أمي نحو الحظيرة قبل أن تغيب لتطل علينا ببعض التبن ، ودلو ماء أفرغته في الاناء المعد لذلك.

عندما كانت أمي تشرب كنت أنا أرضعها...وبعد أن ارتوت توجهت نحوي قائلة:

_هل رأيت تصرفات بني آدم ؟

رأيت .... وسمعت.... لكنني لم أفهم.

_ستفهم عندما تكبر ... ! قالت أمي ضاحكة.

عاد القطيع قبل الغروب، وما إن رأتنا العنزة حتى توجهت نحوي، وحملتني ثم قبلتني، وأمي تراقب المشهد بتأثر.

_لقد عدتما أيها الشقيان ! كنت أتمنى لكما وضعا أفضل لدى ملاكين جدد، لكن للأسف عدتما ...فمرحبا بكما من جديد.

هنأ عدد من أفراد القطيع أمي على عودتنا....

_العنزة ترى الأمور بعيون آدمية ...قالت العنزة الثكلى ...أما نحن فلا حاجة لنا بالترف ...نولد فنأكل لننمو ونتوالد ...قد يأكلنا الذئب قبل أن يذبحنا البشر...وقد نباع في السوق أو داخل المدشر عند الضرورة...هل بيع الكبش العجوز ؟

_بيع وذبح وعلق رأسه للنصب على المتسوقين ...فكل اللحوم التي باعها الجزار أقسم بأنها لصاحب الرأس المعلق.

_لقد باع الأقرع فيلا ... ! قال كبش لم أرتح لرؤيته منذ أن وقعت عيناي عليه.

ضجت الحظيرة بالضحك قبل أن تشرع أمي في سرد رحلة إيابنا وذهابنا....

_علينا إخبارك بأننا قد أسندنا الزعامة للغليظ كخليفة للعجوز الذي أعتقد بأن رأسه لازال يطبخ في قدر بحكم سنه ...قالت عنزة بصوت رقيق.

_ومتى كان لنا رأي حتى نسعى إلى ترسيم زعيم على طائفة من العبيد ؟ فكلنا في ملكية الأقرع.

_لكن بعض الأمور تفرض علينا اختيار زعيم لتدبير عيشنا المشترك.

_أبلد واحد في القطيع يستطيع اتخاذ القرار المناسب في إطار التحضير لذبح بالجملة أو بالتقسيط...لقد أحسنتم الاختيار ...وبما أن الغليظ هو أبلد واحد في القطيع ...فإنني أزكي ترشيحكم...

ارتفعت الضحكات وصيحات الاستحسان من كل جنبات الحظيرة، ليرد الزعيم الجديد ثاغيا بصوت مرتفع:

_تبا لك أيتها العجوز ! يا من رفضها سوق بأكمله ...يا ليت أحد المتسوقين رضي بك .... لكانت أحشاؤك النتنة في قدر تغلي.

_ألم أقل لكم بأنه أبلد واحد في القطيع ؟كلامه يحرض الأنعام على تقديم أعناقها للذبح ، والمعتوه يرى أن معي حملا لم يتجاوز عمره أياما معدودات ...أبارك لك المنصب الذي لن يعفيك من البيع أو الذبح ...كما فعل بالذين سبقوك إلى المسؤولية...لكنني لن أطيعك.

_طاعة الزعيم واجبة ! ...تعالت أصوات من هنا وهناك.

_فليكن ... ! قالت أمي باستهزاء .... سنطيعه طمعا في توفير شروط الذبح الجيد.

_ومن يرضى بذبحك أنت ؟

_ستذبح قبلي ...وسيعلق رأسك كما علقت رؤوس الذين سبقوك ...وسيباع لحمي على أنه لحمك ...فتمتع بزعامتك الوهمية ...واخطب علينا كيف تشاء ! ...

_هل تم رفع النفي عن العنزة الآدمية ؟ قالت نعجة شابة.

_والدها غير موجود ،لقد ذهب ليصرف ثمن زعيمكم في غابة من البنايات الإسمنتية تسمى بالمدينة ،وزوجته لا تتوقف عن لعنه غيابيا على سفره الذي لن يعود منه إلا بعد صرف آخر فلس من ثمن صديقنا.

_أنا ولدت في المدينة...فوق سطح منزل نقل أصحابه بداوتهم إلى هناك.

_ولذلك ترهل جسمك، وأصبحت غير قادر على فعل أي شيء ...قالت النعجة الشابة بامتعاض.

ارتفعت قهقهة من كبش شاب كان يحلم بالزعامة، فأنشد بيتا شعريا حفظه من تلميذ مارس الرعي بشكل جزئي خلال عطلة الصيف:

_إذا قالت حذام فصدقوها**** فالقول ما قالت حذام

اعتبر الزعيم ما فاه به غريمه إهانة واستفزازا .... فتوجه نحوه ونطحه بقوة لتنشب معركة تناطحية بعد إفراغ الحظيرة من الوسط.

استمر النزال عدة أشواط، وانقسم الجمهور إلى طائفتين، طائفة تؤيد الزعيم وتسانده بحجة أن مكانته تقترب من القدسية، وأن توجيه النقد إليه يجب أن يتم في حدوده الدنيا مع ما يرافق ذلك من عبارات التقدير .... وأخرى تعتبر بأن ما قاله الشاب يدخل في إطار حرية التعبير ...ولأن زمن الزعامات الخالدة قد ولى...

طالت المعركة ولم يوقفها سوى ضوء مصباح كاشف سلط على المتناطحين.

_إنه الأقرع ! قالت أمي بصوت مسموع، ولا أحد يرافقه، أعتقد بأنه جاء لذبح أحدنا بعد وفود ضيف خاص.

_لا أعتقد ... ! قالت عنزة ...لو كان ضيفا غريبا لنبح الكلب.

_أنسيت بأن الكلب قد أقسم ألا ينبح قرب الدار ،بعد أن ضربه الأقرع ذات يوم بسبب نباحه على وافد لم يتعرف عليه.

_ولا زال الكلب على عهده ... ! أكد أحد أفراد القطيع .... لن أنسى دموعه التي سالت بغزارة وقولته الشهيرة :(يجب قراءة نوايا الأقرع قبل القيام بالواجب ...وهذا الأمر فوق طاقتي).

الأقرع لم يكن كما تعرفت عليه يوم ولادتي وأثناء مرافقتي له للسوق، لقد كان المصباح يتراقص بين يديه، توجه نحو أقصى الحظيرة حيث أوجد رفقة أمي، وما إن رآنا حتى صاح ضاحكا:

_مرحبا بكما في دار الأقرع من جديد...لم تكتب لكما بيعة مناسبة ...ويا ليتها قد كتبت ! لأن مكانكما لم يعد هنا...بل هناك في جيوب من يستحقون العيش ...إذا لم يسقط المطر، فسنهلك في مدشر البؤس هذا ...وعلى غير عادته جلس على الأرض، وبدون حرج نزع عمامته لتظهر فروة رأسه الشبيهة بجزيرات شعر في بركة واسعة ...بحث في محيط رؤيته عن المتناطحين، ورغم عدم رؤيتهما فقد خاطبهما قائلا بنبرة متلعثمة:

_من المؤكد أنكما كما تتناطحان حول نعجة ، كما نتناطح نحن من أجل النساء ...إحداهن أخذت ثمن صديقكم ...لقد أنفقت عليها المبلغ كاملا بكل سرور...وها أنا أبحث عن كذبة تنجيني من انتقام الحيزبون ...التي تذكرني دائما بأصولي وعاهتي التي تغيب أمام تدفق المال بين يدي .... يا ليتها كانت نعجة فأبيعها بأبخس الأثمان!

كرر الأقرع الجملة الأخيرة عدة مرات، ثم غاص في نوم عميق.

__ الأقرع سكران ! ...قال الكبش المولود في المدينة.... لقد شرب سائلا يقولون بأنه منشط، لكن معاقرته غالبا ما تنتهي بالخسارة.

_سمعت بأن ذلك المشروب حرام ...كان ذلك من رجل وقور خلال مناسبة آدمية تم فيها التهام أخي من قبل المدعوين....

_هل كنت مدعوا معهم! ...

_لقد أقيم الحفل في الهواء الطلق ...وتم عزل النساء عن الرجال مع الحرص على إشراك النساء في الاستماع للشيخ الوقور الذي أطنب في ذكر مساوئ الشراب....

_العديد من البشر يشربونه في العلن ...والبعض منهم يشربونه سرا ويمقتونه جهرا ...إنها الطبيعة الآدمية المعقدة.

_هل تعرفون بأن مراعينا تتوفر على العديد من النباتات المسكرة، ولحسن الحظ أن البشر لم يتعرفوا عليها بعد ...فلو اكتشفوا ذلك لحرثوها في حقولهم ،و لمنعونا منها....

نام الأقرع كما ننام نحن .... وهذا الأمر يكفينا شره ...فلنرقد جميعا حتى لا نوقظه، فيسترجع آدميته، ويشبعنا ضربا.

مع تباشير الصباح أطلقت علينا العنزة كعادتها، هي تبتسم عند رؤيتنا لأن ذلك ينسيها القهر الذي تعيشه مع مثيلاتها وأمثالها ...لكنها صرخت عندما أبصرت والدها ممددا بالقرب مني أنا ووالدتي.

_أمي ... ! أمي...! لقد مات أبي.

إستفاق الأقرع مذعورا على صوت ابنته وصاح:

_أسكتي أيتها البلهاء ! فأنا لست بميت ...وإياك أن تخبري أمك بما رأيت!

_هل أنت بخير يا أبي ؟ قالت العنزة بنبرة حانية.

_نعم...أنا بخير...لكنني أؤكد عليك ...إياك ثم إياك أن تخبري أمك بما رأيت !

_كن مطمئنا يا أبي!

تزامن خروجنا نحو المرعى. مع عودة الأقرع إلى المنزل، بعد أن أعاد ترتيب هندامه، ووجد عصاه التي ألقى بها عند سياج الحظيرة.

_كنت أعتقد بأن العنزة تكره أبويها بفعل ما تتعرض له منهما ...وخصوصا والدها.

_البشر بارعون في إخفاء مشاعرهم، على عكسنا نحن ...الشمطاء ليست سيئة كما تعتقد ...لكن زواجها بالأقرع وعيشها إلى جانبه أثر على سلوكها تجاه أبنائها، ومحيطها، وتجاهنا نحن .... يقولون بأنها تنتمي لأسرة عريقة، وأن الأقرع كان أجيرا بخمس المحصول في بيت والديها، وأن زواجها منه جاء ضدا على كل أفراد عائلتها، وأن والدها هو الذي ترك له قطعة الأرض التي بنى فوقها بيته، وبأن الأرض أرض الشمطاء، وما تبقى من القطيع إرث من والديها، لأن الأقرع لا يملك أين يدفن واقفا.

_ولم تجد الشمطاء سوى هذا الأقرع لتدفن نفسها برفقته في هذا الخلاء!

_وللناس فيما يعشقون مذاهب ! كما قال أحد شعراء الإنس...خاطب غريم الزعيم قافلة الضأن التي تمشي في مسلك وعر...نحتته قوائمها بفعل المشي المتكرر.

_انتبه لمشيك ! واختر أين تضع قوائمك! خاطبتني أمي بحزم .... فخروجك عن الطريق سيلقي بك في منحدر سحيق...ولن نجد لك أثرا.

تابعت القافلة سيرها بحذر يتخلله صمت أملاه الجوع والتعب حتى لاحت بوادر عشب لازال صامدا تحت شمس توالت أشعتها على أرضه، فأصبح مهددا بالانقراض ...فشرعت في الرعي تحت مراقبة أمي:

_هذا العشب سام...وتلك النبتة تنفخ الأمعاء...وفي أطراف المرعى قد تصادف الذئبة الشهباء التي قد تحولك معدتها إلى حليب سائغ شرابه بالنسبة لجرائها ...لا تبتعد عن القطيع ! ولا تقترب من العشب الكثيف! ففيه يكمن الخطر.

جلست العنزة تحت شجرة لازالت تحتفظ بظلها، ومن جرابها أخرجت قطعة خبز يابسة، وبعد أن بللتها بزيت يوجد لديها في قنينة صغيرة شرعت في الأكل، قبل أن تلاحظ وجود بعض العنزات التي لا تنتمي للقطيع وهي ترعى رفقته، فالتفت يمينا ويسارا لترى أحد الرعاة وهو يقترب منها، فقامت متحفزة.

_صباح الخير أيتها العنزة ! هل نشرك القطيعين ونحرس بالتناوب؟

_العنزة هي أمك ! ومن الأفضل لك أن تسوق قطيعك بعيدا عني فأنا لا أصلح لك!

_الكل يناديك بالعنزة فتقبلين منه ذلك ! أعتقد بأنك تفضلين مرافقة الأحول أثناء الرعي! قال مستهزئا.

توجهت العنزة نحو الراعي بعصاها التي لا تفارقها في الخلاء ثم قالت:

__وما شأنك أنت ؟ وفيم يهمك أمري؟ الأحول ابن ناس ويعرف حدوده، أما أنت فلا فرق بينك وبين ذكور القطيع الذي أرعاه شكلا ومضمونا.... فابتعد مني قبل أن أفضحك في المدشر!

تراجع الراعي أمام موقف العنزة...

_كنت فقط أريد أن أقضي اليوم بجانبك ، وأتقاسم معك بعض الحلوى....

_حلواك... ! أنت تعرف أين تضعها ردت العنزة بمكر.

ابتعد الراعي بقطيعه.... وعادت العنزة إلى ظلها...وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة غامضة.

أثناء انشغالنا بالرعي سمعنا نباحا لترفع جل الأغنام آذانها:

_إنه الكلب ! أعتقد بأنه قد توقف عن إضرابه، وعاد لاستئناف عمله.

أطل علينا الكلب من الأعلى، وما إن حدد موقع العنزة، حتى هرع إليها مبصبصا بذنبه الذي لا يستقيم، ربتت العنزة على رقبته، ثم ناولته قطعة من خبزها، فشكرها بنباح يشبه مواء القطة، ثم توجه نحونا ضاحكا.

_مرحبا أيها الكلب ! قالت أمي بترحاب.... وأخيرا عدت إلينا! لقد افتقدناك.

_شكرا أيتها الخالة ! قال الكلب بأدب جم ؛ لقد عدت خصيصا لأحرس حملك من الشهباء اللعينة التي أنجبت مؤخرا ثلاثة جراء، وستسعى حتما إلى توفير حليبهم من الحملان الحديثي الولادة، كما أن صديقتنا العنزة لا تستحق عقابا على خطإ لم ترتكبه، لكن الله قد انتقم لها...فالحيزبون قد طردت الأقرع من البيت بعد أن عاد إليها خالي الوفاض وبه رائحة خمر...لم تصدق قسمه الغليظ بأنه قد سرق في المدينة....ولولا تدخل الجيران لوجدتموه يرعى العشب مثلكم .....سأحكي لكم التفاصيل بعد العودة من جولة تفقدية في المحيط ،فإنني أشم رائحة الملعونة في الجوار.....

ساد قلق لم يلبث أن تلاشى بعد سماع نباح الكلب القوي الذي أخبر بأن المرعى آمن.

_هل الكلب ابن خالتي يا أمي ؟

_من الرضاعة ...نعم ! فأمه ماتت مدهوسة تحت عجلات سيارة وهو جرو حديث الولادة، ولولا إحدى خالاتك التي كانت ترضعه باستمرار لما استطاع العيش...وكما يجب أن تعرف فالكلاب لا تنسى الجميل كما هو الشأن بالنسبة إلينا .... رحم الله أختي التي بيعت في الجوار، والتي سمعتها تثغو، وهي تذبح بمناسبة ازدياد بنت في الدار القريبة من منزل الأقرع.

كلب القطيع لا يحمل اسما، وقد ناضل من أجل الاحتفاظ بتسمية الكلب ...حاول العديد من أطفال الدار والجيران إلصاق اسم به، لكنه كان يصم أذنيه عند المناداة عليه بأسماء إفرنجية .... ومن الأسماء التي رفضها: بوبي، وكوكي وماكس...كان يرفع أذنيه كعلامة على سمعه للنداء عندما تتم المناداة عليه ب: أيها الكلب!

_أنا كلب وكفى ! كان يردد ضاحكا ...وتسميتي بأسماء الفرنجة في غياب قطع اللحم والحلويات والأطاييب الكلبية .... يبقى انتحارا طبقيا كما يقال رعاة موسم الصيف من أبناء المدشر الذين يقضون عطلتهم السنوية معنا.

عاد الكلب من جولته، وعلامات الرضى بادية على محياه:

_لقد طردت الذئبة الشهباء أيتها الخالة ، لكنها ستعود حتما لأن الجوع كافر في غابة لم تعد بها حيوانات قابلة للاستهلاك ...لم تعد هنا أرانب برية كنا نستمتع بلحمها الشهي ،والحجل طور آليات تخفيه دفاعا عن نفسه، والخنازير لا يستطيع أحد الاقتراب منها ، فالخنزيرات من أشرس المدافعات عن خنانيصها ذات اللحم الطري.

_سمعت بأن لحم الخنزير حرام.

_بالنسبة لبعض البشر...نعم ! فالعديد من الديانات تحرمه، وهذا سبب تكاثرها في ديارنا، فلو أنه كان محللا في مدشر البؤس هذا لما بقي له أثر ...أجاب الكلب ضاحكا قبل أن يلتفت إلي:

_شكلك جميل يا ابن الخالة ! وقريبا سوف تتزعم القطيع، وفي هذا الصدد أذكرك بأنك كبش المستقبل، والكبش الأصيل لا يرضى باستبدال اسمه.... قد يختار لك البشر بعض الأسماء قصد التدليل أو التقليل فارفض كل الأسماء واحتفظ بهويتك.... فأنت كبش...ابن كبش.... والكبش جدك.

_اسمع كلام ابن خالتك ! قالت أمي مؤكدة.

انشغال أعضاء القطيع بالرعي، لم يثنهم عن التداول في العديد من القضايا ذات الشأن الغنمي العام.

_سمعت بأن مناطحة وقعت مساء أمس في الحظيرة ! قال الكلب بدهاء.

_نعم ... ! أجابته أمي ...لولا حضور الأقرع لأصبح الكبش والتيس أقرعين أيضا.

_ولماذا لا نستعير من البشر تقنياتهم في شأن تعيين زعيم القطيع ؟

_كيف ذلك ؟ قال خروف شاب.

_بتنظيم انتخابات نزيهة وشفافة....

_ومتى كان الإنسان نزيها وشفافا ،حتى نستعير منه تقنياته؟ بنو البشر يصنعون الانحراف، وينتجون الضبابية، ويتسترون وراء كل ذلك بشعارات زائفة! ...أو لا تعرفهم؟

_بلى... ! لكنني اقترحت استعارة التقنيات فقط، أما روح الديمقراطية فسنستقيها من عاداتنا وتقاليدنا كحيوانات ...أطلب تفويض الأمر لي .... ولنقم بتجربة غير ملزمة في حالة الفشل.

_فليكن كذلك .....أجاب جل من تتبعوا النقاش.

_أنا أقاطع انتخاباتكم ! صاح تيس بقرن واحد.... فهذه لعبة بشرية تهدف إلى تكريس الاستغلال.

_عنادك هو سبب زوال أحد قرنيك ... ! علق الكلب ضاحكا رأيك يحترم ...وسأصرح بنسبة المقاطعة بعد الانتهاء من العمليات الانتخابية ...! من يترشح لزعامة القطيع؟ علما بأن باب الترشح مفتوح في أوجه الإناث والذكور والصغار والكبار.

_لكن البشر يحددون شروط الترشيح... ! لقد سمعت طالبا يكرر الأمر أثناء استعداده للامتحان وهو يحرسنا عندما كنت عند مالك سابق .... قال جدي أنيق.

_هنا يكمن الفر ق بين ديموقراطيتنا وديموقراطيتهم ،هم يقصون صغار السن لأنهم يعتمدون على الكبار ما يقارب أعمارنا الكاملة ،بينما نتحمل مسؤولياتنا في تدبير أمورنا منذ الأيام الأولى لولادتنا ...هم لا يعترفون بقدرات الإناث رغم أنهم يتغنون بذلك في المحافل ، أما نحن فإننا نطبق المناصفة في البحث عن الرزق والدفاع عن القطيع.

ترشح الغريمان التقليديان، وانضاف إلى السباق تيس وعنزة، لتنطلق الحملة الانتخابية التي حددت شروطها كما يلي:

_عدم تقديم العشب لاستمالة الناخبين.

_الابتعاد عن ذكر المساوئ الشخصية للمتنافسين.

_عدم الاعتماد على صلات القرابة في النوع أو الجنس أثناء دعوة الناخبين للتصويت.

_لكل فرد من أفراد القطيع صوت واحد ؛ سواء أكان مولودا داخل الحظيرة أو خارجها، مبتاعا من السوق ، أو مسروقا من حضيرة أخرى ...ويمكن للمترشح اختيار لجنة دعم ومساندة له تروج لأفكاره ، وتحث الناخبين على التصويت لفائدته...دون تقديم هدايا ...أو ...وعود أو إغراءات.

كما تم تشكيل لجنة من القطعان الأخرى، قصد تتبع كل العمليات في أفق تعميم التجربة.

اختارت أمي منافس الزعيم الحالي، وانخرطت في الترويج له ولقدراته بعد أن أخذت مني وعدا بالتصويت ...لأنصرف بعد ذلك لالتقاط العشب الأخضر الملتصق بالأرض بشفتاي اللتان تعودنا على فعل ذلك .... وبينما كنت مستغرقا في التلذذ بالرعي ...أحسست بنظرات تراقبني ...رفعت رأسي لأجده قبالة عينين جميلتين، ووجه طويل بعض الشيء، فاعتقدت بأن الأمر متعلق بكلبة من كلاب الرعاة.

_كيف حالك يا صغيري ؟ وكيف حال أمك؟

_شكرا يا خالتي ! أنا بخير...وأمي مشغولة بالانتخابات.

_تعال لتلعب مع صغاري ، إنهم قريبون من هنا ، وسأردك إلى والدتك.

_علي استئذانها أولا! ...

_الأمر لن يطول ... ! تعال إلي ...وبقفزة سريعة. وجدتها بجانبي وفمها الطويل يحاول الإمساك برقبتي....

_أمي...أمي... ! توقفت الحملة الانتخابية، لأجد ابن خالتي الكلب بجانبي وهو ينبح مكشرا عن أنياب أراها لأول مرة.

_تبا لك أيتها الشهباء ! لم تجدي سوى ابن خالتي ...! قال الكلب لتنطلق معركة رأيت فيها الكلبة تقاتل بشراسة لم أعهدها في الكلاب ...وصلت العنزة مهرولة، والتقطت حجرا صوبته بدقة إلى رأس الكلبة التي انصرفت مترنحة وهي تخاطب ابن خالتي قائلة:

_الكلب يبقى كلبا ... ! لقد وعدتني وأقسمت بأنك لن تحرس هذا القطيع ثانية ...تبا لك تبا...! ثم توارت بين الأحراش وحجارة العنزة تلاحقها.

احتضنتني أمي بين قوائمها قبل أن تركلني بلطف:

_ألم أحذرك أيها الشقي من مغبة الابتعاد عن القطيع ؟ لقد كنت على أبواب الهلاك.

_أنا لم أخالف تعليماتك يا أمي ! الكلبة هي التي اقتربت، وطلبت مني اللعب مع جرائها بما أنك مشغولة بالانتخابات.

ضج الذين تابعوا الحديث بالضحك....

_إنها الذئبة الشهباء أيها الشقي ! فلو أنك تبعتها لكنت الآن في بطنها.

أصابني رعب شديد، لكن حنو أمي وعطفها أنسياني ما عانيته من تهيؤات.

أثناء انشغال القطيع بأمري، قام الكبش العجوز بإغراء الناخبات والناخبين بدعم غير معلن من الكلب الذي أشرف على العملية برمتها، ووزع وعودا كثيرة يعرف الجميع بأنها لن تنفذ، وعند الاقتراع الذي جرى تحت إشراف لجنة تمثل القطعان الأخرى أعلن فوزه بفارق كبير من الأصوات...فصاحت أمي بغضب:

_لعنة الله على الانتخابات التي كادت أن تفقدني ابني.

عدنا في المساء والكبش الفائز في الاقتراع يقود القطيع بزهو وكبرياء رغم محاولات العنزة الآدمية ضبط الأمور، وعلى باب الحظيرة وجدنا الأقرع ينتظرنا ...أمسك بالزعيم المنتخب؛ وبما أنه عنيد، فقد شبع ضربا ثم ربط من قوائمه، ووضع في صندوق دابة حديدية أمام أعين الحيزبون التي حاولت منعه فتلقت منه دفعة أسقطتها أرضا تزامنا مع إقلاع السيارة...أما نحن فقد دخلنا إلى الحظيرة كما خرجنا منها ...لقد

جعنا بفعل طول المسافة ما بين مقر إقامتنا الرئيسة والمرعى الذي لم يعد يحمل من المرعى سوى الاسم.

_لن يعود زعيمكم المنتخب ... ! ولن تنفذ وعوده التي وعدها إياكم ...! قال الكبش الخاسر في الانتخابات.

_الرأي رأي الكلب الذي كان له فضل حماية صغيرنا ...انت الثاني بالنسبة لعدد الأصوات المحصل عليها ...إذن فأنت الزعيم المنتخب.... وإذا ما ارتأى أعضاء القطيع غير ذلك.... فغدا نعيد الاقتراع ...قالت أمي.

_أحسنت القول أيتها العجوز... ! قال التيس المقاطع.

_العجوز هي أمك ! ردت أمي بصوت مرتفع.

تعالت الضحكات قبل أن يرد التيس المقاطع:

_لو لم تكوني نفساء لأدبتك يا معتوهة النعاج.

_لن تستطيع فعل أي شيء باستثناء الكلام.

تدخل زعيم الحظيرة الذي نصب نفسه بعد أخذ غريمه من قبل الاقرع، وقال قولا هدأت بعده النفوس، ومما جاء في خطبته:

_ أما بعد،

فبعد شح الماء، أصبحت الأرض جرداء، والغابة قرعاء. نحن هالكون لا محالة إما ذبحا بالسكين أو خنقا بالأنياب، فأريحونا من فضلكم. فلا يتصارع في هذه الحظيرة سوى أبله أو بلهاء.

ساد صمت ليس بالقصير قبل أن تنطلق التصفيقات.

_لقد رسمناك زعيما علينا بعد ذهاب صاحبك. فلم نعد في حاجة لصراعات فارغة .... قالت امي.

استمر النقاش جزءا كبيرا من الليل، واتفق سكان الحظيرة على مكافأة الكلب بحليب الماعز والنعاج في إطار تناوبي.... سيرضع الكلب من تدي صاحبة الدور بعد صغيرها، فهو أحق بالحليب من الأقرع وعائلته.

عندما جاء الكلب رفقة العنزة في الصباح، وتم اخباره بقرار الجمع العام، عوى من الفرح وأقسم على حراسة القطيع بكل اخلاص ما دام حيا.

سارت الأيام في سياقها العام ،نقضي النهار كله في الأحراش المجاورة للغابة ،الكلب يقوم بواجبه على أكمل وجه ،والذئبة تطل علينا بين الفينة والاخرى لتشتمه ثم تختفي ،وإناث الحظيرة المرضعات يجدن بحليبهن في اطار تناوبي على حارسنا الأمين .ارتفع عدد أفراد القطيع ما بين الحملان والجديان ، بفعل ولادات جديدة تبتهج لها العنزة ، وتتذمر منها الحيزبون ، ويبيع منها الأقرع ثم يعود من أجل خوض معركة كلامية مع زوجته التي عيل صبرها... اكتسبت مكاني في قطيعي الأصلي الذي تبناني بحكم انتماء والدتي له، كما استطعت ربط علاقات خارجية مع خروفات وخرفان القطعان الأخرى ، لأن ولادتي في الخلاء منحتني صفة الخروف المتعدد الجنسيات الذي يمكنه الرعي ضمن أي قطيع شاء ، مع ما يتبع ذلك من امتيازات متفق حولها ، لكنها غير معلنة ما بين الأكباش والنعاج .أ قراني من أبناء حظيرتي كانوا يعاملونني باستعلاء مقرون بنوع من الاحتقار ،لأنني ابن عجوز كما يقولون، ولأن ميلادي جاء بعد ولادة جميع خرفان حظيرة الاقرع، ولقد سمعت نقاشا حول أصلي ووالدي الذي قيل بأنه لا ينتمي للحظيرة ، لكن أمي حسمت الموضوع بعد معركة حامية بينها وبين أم الخروف الذي أشاع الخبر ...كان ذلك أمام كل القطعان ....ومنذ ذلك الحين أغلقت الأفواه واكتسبت جنسية حظيرة الأقرع.

الاقرع استمر في ممارسة هوايته المتمثلة في قرصنة فرد من القطيع كلما دعت ضرورته لذلك، والحيزبون أصبحت أكثر ضراوة في الدفاع عن ممتلكاتها. لكن بعلها ينتصر دائما ويأخذ ما يريد.

أصبحنا نقطع مسافة إضافية للوصول الى عين الماء بعد أن جف النبع القريب، وصارت تلك النقطة مكانا يلتقي فيه الجميع لقضاء وقت بعيد عن الذئبة التي تزوره في الليل فقط. هناك يحرص الرعاة على احترام الدور فيما بينهم، وتستغل الماشية وقت الانتظار للتعارف وتبادل الأخبار فيما بينها.

_لقد انخفضت أسعارنا في السوق بشكل جلي! قال كبش مهيب الطلعة يتحمل مسؤولية قطيع كبير.

_الكل مرتبط بالماء أيها الزعيم .... ردت أمي... نظر الكبش بتودد إلي، ثم توجه نحو أمي محدقا:

_حملك جميل! أيتها النعجة الحسناء.

احمر وجه أمي خجلا قبل أن تغيب وسط القطعان التي تنتظر دورها في الحصول على الماء.

تكررت لقاءات أمي بالكبش الغريب إلى أن انتفخ بطنها أمام استياء خرفان وأكباش القطيع، ولا أخفيكم سرا بأنني قد شعرت بالخجل.

_تتعففين علينا، وتلعبين دور القديسة، وترافقين الغرباء! قال زعيم القطيع بامتعاض.

_وهل هذا الأمر يهمك أيها الزعيم الضخم؟

_في قطيعنا أكباش قوية، وخرفان يافعة! فلماذا لم تختاري واحدا منهم؟ عوض جر الأقاويل علينا.... أضافت نعجة نحيفة.

_ لقد تركتهم جميعا لك! ردت أمي باستهزاء.

دعا أحد أتباع الزعيم إلى مقاطعة الوالدة، لكن الاقتراح وجد معارضة شديدة من سكان الحظيرة، لأن الحرية الشخصية مقدسة في عالم الحيوان. زارنا الأقرع قبيل طلوع النهار، وأخذ الزعيم ثم انصرف، وفي الطريق نحو المرعى تم اختيار خروف شاب لتدبير أمورنا بشكل مؤقت، وقد التزم الزعيم بإجراء انتخابات في أقرب الآجال، لكنه لم يفعل بعد أن دفع باتباعه للترويج بأنه الوحيد القادر على توحيد القطيع، وتيسير أموره في ظل شح الماء وقلة العشب وتكاثر غارات الذئبة الشهباء. وكذلك كان.

بعد أسابيع من حملها وضعت أمي حملين طبق الأصل من والدهما الغريب عن العشيرة. لم تكن التبريكات كثيرة، لكن الحيزبون انشرحت لرؤية الخروفين:

_على الأقل استطعت الاتيان بسلالة مميزة هذه المرة. اتساءل كيف استطعت إغواء كبش صردي ايتها الشمطاء؟

ضحك القطيع وربة البيت لا تدري. وعندما زارنا الأقرع قال ما قالت زوجته وهو يقارن بيني وبين أخواي، ويتحدث عن النسل المتميز ودور الأب في فعل ذلك. بعد مغادرته صاح التيس صاحب القرن الواحد:

_أما أنت أيها الأقرع فوالدك كان متميزا عندما أنجبك.

ضحك أهل الحظيرة كان مقرونا بالخوف من فهم الأقرع ما قيل في حقه...ولحسن حظ الجميع أن الأقرع لا يفهم.

بعد أيام قليلة من ولادة أخواي وقع نمو ديموغرافي لا بأس به في حضيرتنا ليملأ الفضاء بالثغاء الاحتجاجي الناتج عن قلة الحليب في ضروع الأمهات، ومصادرة كمية منه من طرف الحيزبون.

_في بلاد الفرنجة يطعمون الحملان بحليب اضافي مليء بمادة مقوية يقال لها الفيتامينات.

_تلك المواد تنفخ، لكنها لا تمنح الصحة والقوة. الخرفان هناك يتم تسمينهم بسرعة لأن اللحوم تستهلك بكثرة.

_هنا أيضا تستهلك لحومنا.

_ ليس بنفس الكمية، لحومنا هنا غالية الثمن بالنسبة للمستوى المعيشي للسكان. مكيال لحم هنا يساوي أجرة يوم كامل من العمل. أما هناك .... فنصف ساعة تكفي.

يقولون بأن لحم خرفان الفرنجة لا طعم له.

_بسبب المكملات الغذائية التي يضيفها مربو الأغنام إلى العلف.... لو كان هذا هناك! واشار إلي لأصبح قابلا للذبح في أسابيع قليلة عوض مزاحمة اللقيطين في حليب امه.

اللقيط هو أنت واللقيطة هي أمك! ردت أمي بغضب. وقى الله صغيري من ذبح وأنا على قيد الحياة.

نظرت إلى أمي بامتنان وأنا نادم على خجلي من إنجابها المتأخر.... أمي دائما على حق.

تجاهل المهان تجريح أمي له ولأهله، ليستمر الحديث.

_خرفان بلاد الفرنجة يعيشون في نعيم.

_نعيمهم لا ينجيهم من الذبح بالسكين أو القتل بالكهرباء. نولد فنأكل ونتناسل قبل أن نؤكل .... قريبا سيحتفل أصحابنا بعيدهم السنوي، وبما أن العيد يقتضي ذبح أضحية، فان أعدادنا مرشحة للانخفاض.

_يا ليتنا رحلنا إلى بلاد الفرنجة قبل العيد.

_القتل هناك أشد ضراوة، ولو سألت قطعان الفرنجة عن أحوالهم لوجدتهم يحلمون بالوصول إلى مدشر البؤس هذا.

_ بمناسبة العيد قد يستوردون أكباشا من بلدان أخرى. ومن أخذ منكم الى السوق، فسيلتقي ببعضهم حتما...نظافة وضخامة...و....انفجر كل الذين سمعوا التعليق البذيء بالضحك...

_ لكن هذا الامر موجود عندنا أيضا.

_نعم.... ولكن ليس بنفس الكثرة.... قالت أمي ضاحكة.

_إذا ما وفد خروف من بلاد الفرنجة على حضيرتنا.... فستصاحبينه حتما .... وقد يترك لدينا من سلالته.

توجهت أمي نحو صاحبة الكلام المستفز قصد نطحها، لكن إطلالة الأقرع رفقة ابنته أوقفت الأمر.

_كلامك دين وسارده عليك وزيادة أيتها العنزة ال.....لن تخسري شيئا ان انتظرت.

_متى شئت أيتها العجوز المتصابية... ردت العنزة بثقة القادرات...

ساعدت العنزة والدها على عزل مجموعة من الذكور عن باقي أعضاء القطيع، لأن موسم عرض الأضاحي سينطلق. ونظرا لمكانتنا التي حصلنا عليها بفضل أمي التي أنجبت خروفين من سلالة متميزة، فقد تم ضمنا الى طائفة المعروضين. أضيفت للعنزة مسؤولية التنظيف اليومي للحظيرة التي أصبحت واجهتها معرضا لما توفر لدى الأقرع من اكباش وتيوس وبعض الإناث اللواتي لم تنجبن بعد...لتتوالى زيارات المتسوقين.

في الأيام الأولى كانت الزيارات قليلة، لكنها تكاثرت عند اقتراب اليوم الموعود. أثناء المفاوضات حول الأثمان تأكدت بأن الأقرع يكذب بمهارة لا مثيل لها. لقد حولنا إلى قطيع محبوب لا يستهلك سوى الأعلاف المتميزة التي سمعت بها لأول مرة ...بحيث كان يستعرض على المشترين تضحيات وهمية قام بها، والآخرون يصدقونه في إطار المجاملات فقط.

بيع عدد من كبار الأصدقاء وسيق ما تبقى إلى سوق لم يعد منه الأقرع الذي سافر، لكن الأتان عادت محملة بلوازم العيد، لتكتشف العنزة بأن والدها قد اشترى لها لباسا وحذاء جديدين...فرحت المسكينة وهي لا تدري....

تناقص عدد أفراد القطيع إلى ما دون النصف، وانخفضت نسبة الذكور بشكل جلي.

_لقد أصبحنا أرامل ...! قالت عنزة ناضجة لها جدي على أبواب البلوغ.

_فلننتظر جديك حتى ينمو...! علقت إحدى العنزات ضاحكة.

_ابني لن يلتفت للشمطاوات من مثيلاتكن ...فاليافعات كثيرات داخل القطيع وفي المراعي.

_ وماذا أفعل أنا هنا؟ صاح التيس ذو القرن الواحد الذي دعا الى مقاطعة الانتخابات ...أنا رهن إشارتكن أيتها الجميلات!

_ ومن ترضى بك يا وحيد القرن؟ ردت العنزة ضاحكة وقد أعرض عنك المشترون بسبب عاهتك التي تمنع عنك صفة الاضحية. أثناء استغراقنا في الضحك، أطل علينا الكلب وقال نابحا:

_لدي لكم خبرين! الأول جيد والثاني سيئ!

توقفت الشياه عما كانت بصدده قبل أن يسترسل الكلب:

_أما الخبر الجيد ،فإن ابن فلانة قد نجا من مذبحة الغد...وأشار إلي....وأما الخبر السيئ فيتعلق بقرار التضحية بوحيد القرن الذي لم يجدوا سواه ، رغم أن بعض فهماء البشر يرون بأنه لا يصلح كأضحية للعيد بسبب قرنه الوحيد ،لكن قرار الأقرع لا يناقش في المنزل ،فقد اقترحت الحيزبون نحر ابن فلانة كذبيحة اضافية لكن الأمر لقي معارضة شديدة من قبل العنزة التي بكت بشدة حتى رضخ والدها للطلب معتبرا بأن كلام الفهماء يتضارب مع بعضه....وبأن التضحية بوحيد القرن لوحده جائزة.....أقول لك وداعا أيها اتيس الشهم الذي لم أر منه مكروها منذ ولادته..... ! لقد تعاقدت معكم على حراستكم من الذئب.... لكن حمايتكم من بطش البشر يبقى فوق طاقتي! فودعوا صديقكم بالطريقة التي ترونها مناسبة! قال الكلب قوله، ثم توجه مسرعا نحو منصة الحراسة ...ليسود صمت واجم داخل الحظيرة، قبل أن يتكلم المرشح للذبح قائلا:

_قد يكون الذبح أرحم من العيش في هذه الحظيرة النتنة التي لا تنظف سوى في المناسبات ...في هذا المكان ولدت، وفيه ترعرعت ونشأت ، وهنا فقدت قرني في نزال مع أخي حول عنزة مسروقة ذبحت في اليوم الموالي ، ولم يتزوجها أحد...لقد حرسني الابن الأكبر للأقرع الذي فر من المرعى بخروف وجدي ولم يعد ، ومررت بتجربة الحراسة من قبل أنثى منحناها جنسيتنا بالإجماع ،وقريبا سوف يحل أخوها محلها، لكنني لن أكون ...أما القطيع فسوف يستمر.....جربت المجد والذل ،ومررت بتجارب الحب والحقد والكره...وغدا سأذبح ، وسوف تشمون رائحة كبدي وهي تشوى قبل خروجكم

للخلاء.....لم تستطع الذئاب الوصول إلي...لكن البشر سفاح....والسفاح لا يثنيه شيء .....الوداع أيتها الصديقات وأيها الأصدقاء.

كان نومنا مضطربا لأن رائحة الموت تطوف حولنا.... وعلى غير عادتها، تأخرت العنزة في فتح باب الحظيرة .... وعندما فتح رأينا الأقرع يدخل علينا مبتسما على غير عادته:

_صباح الخير أيها الاصدقاء ...كيف أصبحتم؟ تحيته المشبوهة كانت مقرونة بحركات عينيه اللتان كانتا تبحثان عن شيء ما.... وما أن وقع بصره على وحيد القرن حتى هرول إليه مسرعا ...وأمسك بقرنه الباقي وجره نحوه وهو يضحك:

_تعال معي أيها العفريت! لو كنت بقرنين اثنين لبعتك بأغلى الأثمان .... لكن قرنك المكسور هو سبب كسادك لأن المشترين يحبون ذوات القرون الكاملة...وجلهم أحق منك بالقرون.... حتى الشمطاء عارضت التضحية بك...وكأنها صاحبة القرار.... تعال معي قبل أن تنال مني في يومك الأخير...!

نظر الينا وحيد القرن نظرة لم نفهم معناها حتى رأيناه يوجه للأقرع نطحة بقرنه السليم على مستوى ركبته ليترنح صاحب الحظيرة ولتتغير ملامح وجهه. توجه نحو سياج الحظيرة وهو يعرج فاعتقدنا بأنه قد انهزم وأعرض عن ذبح صاحبنا، لكنه استل من هناك غصن شجرة يابس وعاد إلى التيس ليشبعه ضربا وهو يكيل له الشتائم، والتيس يبادله شتيمة بأخرى ويحاول نطحه، لكن الاخر كان قد اتخذ احتياطاته.... فضاعف من ضرباته إلى أن خارت قوى صاحبنا....

_ إذا لم يكن من الموت بد.... فمن العجز أن تموت جبانا ...قال التيس وهو يسلم عنقه للأقرع الذي ذبحه أمام أعيننا...وجره من إحدى قوائمه تاركا خلفه خيطا عريضا من سائل أحمر تعرفت عليه لأول مرة.

بعد إغلاق باب الحظيرة انخرط الجميع في البكاء.... وتسابق الذكور في ذكر مناقب الذبيح.... وتأخر فتح باب السياج حتى بعد انتشار رائحة الشواء.

تسلل الجوع الينا وسيطر العطش على حناجرنا وشرعت الحملان والجديان في الثغاء، فتم إسكاتهم من قبل أمهاتهم بالتحذير من عودة الأقرع الذباح فصمتوا...

_هل جف الحليب من ضرعك؟ .... سألت نعجة أمي.

_ لم يعد المخزون كافيا .... ثلاثة أفواه.

_ الكبير مطالب بالاعتماد على نفسه، وترك الحليب لأخويه.

_وما شأنك أنت يا خالتي؟ ...صحت أنا بغضب.

_يا بني! أرض الله فيها ما يغنيك عن قرصنة حليب أخويك الصغيرين.... وأقرانك تم بيعهم كأضحيات خلال الأيام الماضية، ولولا صديقتنا العنزة لرافقت وحيد القرن إلى العالم الاخر.

_ حفظ الله صغيري...قالت أمي.... لازال حليبي بين أسنانه.

بعض البشر يفضلون لحوم هذه الفئة.

تكهرب الجو بين أمي ومحدثتها التي تربطها معها علاقة خؤولة.... وكانتا على وشك الشروع في التناطح بعد أن تقاذفتا بعض الكلمات الجارحة.

_هيا العنا الشيطان وكفا عن ممارسات الصبيان .... فاليوم عيد! قال كبش ناج من الذبح.

_ لا علاقة لنا بالشيطان لأنه متخصص في التأثير على البشر فقط. أما العيد فانه عيدهم لوحدهم، واحتفالاتهم به تأتي على حساب لحومنا.... حركوا حواس شمكم ...وتعرفوا على الرائحة!

انتشرت في الحظيرة رائحة شعر محروق، وشرع الصغار في السعال، وعم صمت رهيب أنسى النعجتان سوء تفاهمهما.

_رأس وحيد القرن يشوى! قالت عنزة باكية.

_وكذلك كبده وقلبه وبعض أحشائه.... أضافت أمي...قريبا ستطل علينا العنزة لإخراجنا بعد أكل نصيبها من الشواء.

_لماذا نضحك بعد شي رؤوسنا؟ قال تيس نجى بدوره من الذبح.

_ انتظر حتى يحين دورك وأخبرنا! ردت إحدى أرامل وحيد القرن.

أثناء الصمت الذي خيم من جديد على أرجاء الحظيرة المملوءة بالدخان، اتخذت قرارين اثنين: الأول هو عدم الاقتراب من ضرع أمي، والثاني أن أستمر في القتال إذا ما فرض على ذلك حتى أنتصر أو أموت.... لقد أصبحت راشدا بمحض ارادتي بعد مشاهدتي لمعركة وحيد القرن مع مالكه، كما أن حديث أمي مع قريبتها كان بمثابة صفعة أيقظتني من حلاوة العيش الطفولي .... لقد أدركت بأن سكينا ما يشحذ للمرور فوق عنقي برفق أو بقوة.

لم يمض وقت طويل حتى أطلت علينا العنزة متأنقة، وبجانبها أبوها وطفل وشاب مختلف في لباسه عن ملابس الرعاة، والكلب يسبقهم وذنبه المعوج يتراقص بخيلاء.

_لقد أكلت شيئا منا أيها الكلب! قالت عنزة باشمئزاز...أطعمناك من حليبنا، ورفعناك فوق رؤوسنا. لكنك انضممت إلى طائفة اكلي لحومنا.

_لقد أذاقوني من أحشاء وحيد القرن فلم أجد بدا من قبول الهدية. أنا في ملكية البشر وأنتم كذلك، وقبول هدايا المالك واجب على المملوك.... عندما يأتونكم بالشعير والأعلاف اللذيذة تفرحون...أحشاء وحيد القرن لذيذة ومغذية، وإذا لم اكلها أنا فستتنازع حولها القطط .... تذكروا بان القسم الذي اقسمته امامكم يتعلق بالحراسة من الذئب وليس من الإنسان وأنا ملتزم بما أقسمت به.

_لا عليك! قالت امي...فهذه طبيعة الأشياء.... الكل يأكل ما كتب له...الأعشاب أيضا كائنات حية لكننا نأكلها .... هي تحس بذلك ونحن لا نشعر بمعاناتها.

أثناء الحوار الدائر بين القطيع والكلب، كانت المجموعة الآدمية تتجول في أرجاء الحظيرة، وكلهم يتحاشون الاقتراب منا حفاظا على نظافة ثيابهم المميزة بمناسبة العيد.

_لقد كبرت العنزة صاحت عنزة حقيقية.... قريبا سيزوجونها...أو سيرسلونها للعمل كخادمة في بيوت سكان المدينة.

_وما أدراك بالأحوال الشخصية للبشر؟

_لقد رأيت الكثير قبل الوصول إلى هذه الفضاء القذر .... وأغنيت تجربتي أثناء استقراري هنا.

توقف الشاب الواقف على أبواب الكهولة قبالة أمي وقال بصوت مرتفع:

_أما هذه العجوز فإنني أعرفها.... لقد طال مقامها هنا...

_ العجوز هي التي ولدتك ...! ردت امي بغضب.... لقد أعطيتكم الكثير ولم اتلق منكم سوى الجحود ونكران الجميل ....

_ هل هذا ابن الأقرع حقا؟ سألت أمي.

_ نعم.... فكل قدماء المكان يعرفونه حق المعرفة.

_ لكنه ليس أقرعا كوالده...!

تعالت ثغاءات ضاحكة قبل أن تشرح لي والدتي بأن القرع ليس وراثيا، لكنه ينتقل من رأس لآخر بفعل العدوى، وأن سببه الرئيسي يعود لقلة النظافة، وأنه مصنف ضمن الأمراض التي ينتجها البؤس المسيطر على العديد سكان الأرض.

_ لقد تذكرت هذا الآدمي المعتوه...قالت العنزة العجوز، وتذكرت أيضا تشجيعات الرعاة له وهو يسوق شاتين في الاتجاه المعاكس بعد أن أوصى الرعاة بإعادة القطيع إلى الحظيرة ...وهو يتوجه نحو المجهول.

_وكيف عاد بعد أن سرق؟

_ المال يصلح كل شيء في عالم البشر...أعتقد بأنه قد استقر في المدينة ووجد عملا يدر علية المال كما تشهد ثيابه بذلك... وبأن هداياه المالية قد أطفأت نار الغضب التي كانت مشتعلة في رأس الأقرع الذي يتهاوى عند رؤية أوراق النقد.

كانت خرجتنا للمرعى القليل عشبه في يوم العيد أشبه بجولة ترفيهية خارج الديار، الكلب مطمئن بحكم بعد المرعى عن الأحراش، العنزة قلصت من تحركاتها حفاظا على أناقتها، والراعي السابق يكتفي بإعطاء التعليمات لأخيه الأصغر الذي ينفذها بدقة متناهية ...لم يمض وقت حتى سمعنا العنزة تطلب من أخيها جمعنا استعدادا للرجوع.

_ لم نأكل بعد شيئا! قال خروف في سني.

_ سيعطونك بعض التبن في الحظيرة. وشيء في داخلي يخبرني بأن العنزة سوف تتركنا قريبا.

_ سنفتقدها كثيرا؛ إنها راعية ممتازة.

_ قد يعوضها الأقرع بأخيها الأصغر الذي لن يذهب إلى المدرسة بعد الآن.

_ يقولون بأن التمدرس إلزامي بالنسبة لكل أطفال البشر.

_ انه كلام التلفزة يا صغيري، وكلام وسائل الإعلام البشري مليء بالأكاذيب.

اثناء عودتنا كنا تحت الاشراف المباشر للتلميذ الذي لم يتوقف عن محاولة ضبط سيرنا على طريق ألفناها.

_ المسكين يتقمص دور المعلم في الرعي.

_ المشكل أن اسمه سعيد .... قالت أمي بمرارة.

_ كل أسماء بني البشر تدعو للتأمل .... فالسعيد قد يعيش شقيا، والشجاع قد يكون جبانا.... والكريم قد تجده من أبخل الناس.

_ والجميلة بشعة.... قال تيس ناج من مذبحة العيد.... وهو ينظر إلى العنزة التي ترفل في ثيابها الجديدة.

_ العنزة جميلة حقا...والفقر هو الذي يقلص من جمالها.... وكل شيء قابل للإصلاح والترميم في عالم البشر .... إذا غادرتنا العنزة نحو المدينة وعادت إلينا بعد عام، لن يتعرف عليها من بقي منا على قيد الحياة...خصوصا إذا كان مشغلوها من أهل الخير.

_ وماذا ستفعل العنزة في المدينة التي يقولون عنها بأنها غابة من رمل وحجر...وكل حيواناتها بشر.... باستثناء بعض القطط والكلاب والبغال والحمير....

_ والذئاب؟ ...قال أحد إخوتي

_الذئاب هناك تلبس ما يلبسه البشر ...وتتكلم مثلهم.... لكنها تشرب عرقهم، وتسطو على أرزاقهم.

_ وهل تعوي كما تعوي ذئاب الغابة؟

عواء أغلبهم جميل، ويجذب اليه الذين يطمعون.

_ الطمع أم المهالك.

_صغير ...جميل ...وذكي ...قالت أمي بشغف.

_ وصالح للذبح في أقرب الآجال .... علق فرد من القطيع.

_ بعد ذبحك بأعوام كثيرة ردت أمي بغضب.

دخلنا إلى الحظيرة قبل نهاية اليوم وأنا أحس بالغيرة من أخي الذي وصفته أمي بالذكي ...وهو وصف لم تطلقه علي ولو مرة واحدة.... فقررت أن أثبت لها ذكائي في القادم من الأيام...عادت إلينا العنزة بعد غياب قصير رفقة أخيها الأصغر .... هي تحمل بعض العلف بينما تكلف التلميذ بملء آنية الماء ...وبعد إشرافهما على أكلنا وشربنا بشكل ديمقراطي ...قدمت العنزة الآدمية لأخيها تقريرا مفصلا عن سلوكاتنا وطباعنا ...وكيفية التعامل معنا في الخلاء:

_ذلك الكبش هادئ ومسالم، وذاك التيس مشاكس وكثير الشجار مع تيوس القطعان الأخرى. وتلك العنزة ترعى دائما في الطرف، وفي ذلك خطر عليها وعلى جديانها.... وعندما اقتربت منا سمعتها تقول بكل وضوح:

_ أما هذه فصديقتي ...أوصيك بها خيرا وبأبنائها...وخصوصا ذاك النحيف العفريت ...لقد كنت سببا في إفلاته من السكين في هذا اليوم.

_لكنني لا أريد الرعي! بل أرغب في العودة إلى المدرسة!

_ هذا الامر فوق طاقتي وطاقتك.... والقرار بيد الأب لوحده.

قبيل خلودنا للنوم اتفقنا بالإجماع على تسهيل مأمورية الراعي المبتدئ إلى حين تمكنه من استيعاب تقنيات الرعي.... وهذا ما تم فعلا في اليوم الموالي للعيد، بحيث فتحت العنزة باب الحظيرة قبل الوقت ...وكانت برفقة والدتها وأخيها الذي يحمل محفظته على ظهره، وكأنه ذاهب للمدرسة.

العنزة لا ترتدي ثياب العمل، وأمها تقوم بما يجب القيام به وكأنها هي التي ستسوق القطيع، والطفل يراقب المشهد، وكأن الأمر لا يعنيه.

_ لا تقلق يا ولدي، فقطيعنا سهل القيادة، لكن لا تبتعد به عن باقي القطعان!

_ لقد أوصيت باقي الرعاة.... وسيساعدونه كما التزموا بذلك.

_وهل يجب الوثوق برعاة البشر؟ أو لا تعرفينهم؟ سيحاولون الإيقاع به من باب التسلية ....

_هل أرافقه إلى المرعى ثم أعود مسرعة يا أمي؟

_ وهل نسيت تعليمات والدك؟ أخوك يجب أن يعتمد على نفسه في اليوم الأول .... كما أن لديك أشغال يجب القيام بها قبل ذهابك.

_ الذهاب لن يكون إلا يوم غد.... فاتركيني أرافقه ثم أعود.

_ لا...! قالت الأم وهي تجهش بالبكاء.... ثم قفلت راجعة الى الدار والعنزة تنظر الى أخيها الذي أطلق أول صرخة له كراع مبتدئ.... ونحن نسير أمامه بانضباط تام.

_ ما أبلدك أيها القطيع! قال تيس مشاكس...تضبط نفسك على إيقاع راع مبتدئ سيكون سعيدا بذبح سلالتك عندما يكبر.

_ حاليا هو ضحية مثلنا. مكانه في المدرسة لكن قرارات الأقرع تنفذ ولا تناقش. أعمارنا محددة بآجالها وكذلك اعمارهم. نسبة الذبح قليلة في صفوفهم لكن طرق الموت كثيرة ومتعددة لديهم. عندهم الأمراض وحوادث السير والسقوط من الأعلى.... تعددت الاسباب لكن الموت واحد.... كما قال أحد شعرائهم.

_ على ذكر الشعر.... منذ مدة لم نسمع شاعرة القطيع...هل جفت قريحتها؟

_ وهل ترك الأقرع لنا شيئا نحس به .... قال صوت رخيم.... لقد اجهز على عناصر الجمال في مجموعتنا.... يبيع بناتنا وأبناءنا قبل الفطام، ويضحي بأزواجنا وأخواتنا في كل مناسبة ومن غيرها.... وها هو يحرم ابنه من حق التعلم كما تنص على ذلك قوانينهم...أما صديقتنا العنزة ...فمصيرها يعرفه الله وحده.

_العنزة سترحل الى المدينة قصد الاشتغال كخادمة في أحد المنازل...نبح الكلب قائلا.... لقد سمعت الحوار الذي دار بين السمسار والأقرع.

_هل يبيع البشر ابناءهم كما يبيعوننا نحن؟ .... سأل أحد أخواي.

_ليس بيعا كاملا .... أوضح الكبش الضخم الذي لا يتوقف عن التغزل بأمي ...إنه بيع جزئي يسمى بالكراء.... عند نهاية كل شهر سيتوجه الاقرع نحو المدينة للحصول على مبلغ مالي متفق حوله، مقابل اشتغال العنزة في منزل أناس يبحثون عن راحتهم مقابل مال متوفر لديهم.

_ العنزة تشتغل .... ووالدها يتقاضى أجرا عن ذلك؟

_ نعم ...! فهذه طبيعة الاشياء لديهم.

_ وبما أن الأقرع سيحصل على المال بشكل مستمر.... فإن بيع أحد أفراد القطيع مستبعد حاليا.

_ الأقرع نموذج سيئ للإنسان...قال الكلب ...هو فقير ومعدم على حد قوله ...ولذلك يحب المال حبا جما، لكنه لا يتردد في صرفه على هواه وأهوائه...نزواته خارج داره لا تعد ولا تحصى...وكل نزوة تتطلب مالا أكبر من سابقاتها...الأقرع مقامر وفاسد و.....

تعالت الاصوات مقهقهة ونحن نقترب من الأحراش التي سنبدأ فيها عملية البحث عن غذائنا وفق مسار مضبوط ومحدد...نشرع في الأعلى ثم ننزل أثناء تناول ما وجدنا من عشب نحو أسفل الهضبة حيث يوجد نبع ماء لازال متشبثا برحيقه ، وهناك يلتقي الرعاة والقطعان...الكلب لم يكف عن الحركة تحسبا لهجوم محتمل من الذئبة الشهباء، ونحن نرعى كفريق متكامل ، الكل يبحث عما يناسبه من عشب....حتى الجديان والخرفان التزموا بتوجيهات أمهاتهم ...حاولنا طمأنة الراعي الصغير بلغتنا...لكن المسكين لم يفهم قولنا وبقي خائفا ووجلا إلى حين وصولنا لأسفل السفح حيث الأمان والماء وبعض العشب الذي يأكله الأقوياء فقط ، بحكم طراوته التي أنتجها قربه من النبع الصامد.

رحب الرعاة بالوافد الجديد على المهنة، منهم من تأسف لمغادرته للمدرسة، ومنهم من اعتبر المدرسة مضيعة للوقت وللمال، لكنهم وعدوه بالدعم والمساندة إلى حين إتقانه للحرفة ...بعد انفضاض الرعاة عن زميلهم الصغير، توجه نحوه شيخ تبدو عليه علامات الوقار، وخاطبه قائلا:

_أيها الغلام! مكانك في المدرسة.

_ أبي شاء غير ذلك يا عمي ....

_هل أنت ابن فلان؟

_نعم ...يا عمي.

_ هدى الله والدك الذي لا ينظر إلى ابعد من أنفه.... وأين ذهبت أختك؟

_لقد اكتراها الوالد كخادمة في المدينة.

_ ما قام به والدك ليس من تقاليدنا...ولا أعرافنا.

_كل وظروفه يا عمي! قال أحد الرعاة الشباب.

_ الظروف ليست سببا للإلقاء بالأبناء نحو الهلاك...

_ وهل الذين تابعوا دراستهم وأكملوها أفلحوا؟ إنهم يعودون إلينا ببعض الحروف والكلمات التي يتبجحون بها في حوانيت المدشر...وينشرون بين الذين لم يتمدرسوا عادات سيئة تزيد طيننا بللا.... قال كهل نحاسي البشرة يقترب من سن الشيخ.

___ الرعي لم يعد حرفة في قرون الجبال...! الرعي لا مستقبل له.... المستقبل يبنى في المدرسة.

_ وأبناؤك الذين أنفقت عليهم شبابك وكهولتك...؟ أين هم؟ لقد غادروا نحو المدينة، وتركوك تقطع أنفاسك في مرتفعات ومنحدرات مراعينا الجرداء.... فأرحنا من مواعظك يا ابن العم!

_أنا قمت بواجبي تجاه أبنائي ...وتركت لهم واسع الاختيار ...لقد تسلحوا بالعلم والمعرفة وساحوا في الأرض بحثا عن مستقبلهم، وإتمام ما تبقى من حياتي في مهنة الرعي يبقى اختيارا شخصيا ...لقد قمت بواجبي وأنتظر الجزاء من ربي.

_ كلنا ننتظر جزاء الله ...قال الكهل ذو السحنة النحاسية بلهجة لا تخلو من شك في قول الشيخ ...ثم انزوى تحت شجرة ظلها مثقوب بأشعة شمس منتصف النهار ...وفتح زوادة طعامه التي أخرج منها خبزا وقنينة شاي، ليشرع في الأكل بعد أن أشاح بوجهه عن الجميع.

_ بين الكهل والشيخ تاريخ من الرعي والمشاحنات أخبرتني أمي .... فهما على طرفي نقيض في كل حواراتهما..

_ وأنت؟ أيهما تفضلين؟ الشيخ الوقور أم الكهل النحاسي؟

_ لكل واحد منهما سكين يذبحنا به عندما يريد ذلك. فدعك من البشر فإنه مماثل لبعضه! وانتبه لرعيك وحافظ على نفسك وتمتع بحياتك! فوقت السكين آت لا ريب فيه!

أخرج الراعي الصغير من محفظته التي كانت تحتوي لوازم دراسته خبزا محشوا بقطع اللحم وشرع في الأكل بعد أن رمى للكلب بعضا مما يأكله.

_إنه لحم صديقك وحيد القرن! صاحت أمي باستياء.

_ أنا لم أذبح وحيد القرن، ولم أسلخه، ولم أطبخ لحمه. لقد حرصت على حراسته كما كنت حريصا على حراستكم إلى أن حان أجله بمناسبة العيد.... وما ألقى إلى الصبي لا يساوي شيئا بالنسبة لكمية اللحم التي أنتجها ذلك المنحوس.

_ إنه اليوم الأول للصبي في المهنة .... قريبا لن يخرج من محفظته سوى خبزا يابسا، وسيسعى الى سقيه من حليبنا كما كانت تفعل أخته العنزة.

_ترى كيف حال العنزة؟ قالت عنزة حقيقية.

_ جل اللواتي تم اكتراؤهن يعانين مع مشغليهم ...تعب كثير وأكل قليل وأجر هزيل يتقاضاه الأب عند نهاية كل شهر .... أما مخاطر العمل في بيوت الغير ...فحدث ولا حرج.... قالت العنزة.

_ حدثينا عن هذه المخاطر يا خالتي! قال أحد أخواي.

_ ستعرف ذلك عند تقدمك في السن...قالت إحدى صديقات أمي ضاحكة قبل أن تتحرك رفقة القطعان التي سلكت طريق العودة الذي يرافقه التقاط ما تجود به الأرض القاحلة من أعشاب هنا وهناك...فجأة ارتفع نباح الكلاب بشكل غريب ...هرول الرعاة نحو اتجاه واحد...وأثناء جريهم لمحوا الذئبة الشهباء تولي هاربة بعد أن خنقت جديا حديث الولادة.

_ سوف تدفعين الثمن أيتها اللعينة! قال الكهل ذو السحنة النحاسية بغضب ...عتاة اللصوص لا يقتربون من قطيعي، وأنت فعلت ذلك! موتك سيكون أبشع من موت هذا الجدي البريء .... أقسم لك.

بكاء العنزة على صغيرها المخنوق كان حارا وكثيفا...حتى أنه ذكر اللواتي مررن بنفس التجربة بأحزانهم .... لينخرط الجميع في بكاء حار. اقترب الراعي الكهل من الجدي الذي يجود بروحه متأثرا بأنياب الذئبة...وبحركة سريعة مرر سكينا لامعة شفرته على عنق المخلوق الصغير الذي ثغا ثم همد بعد أن فرغ من دمه.... ازداد بكاء الإناث أمام هذا المشهد بينما كان الذكور يتابعون، وكأن الأمر لا يعنيهم. أحس الكهل بنظرات العنزة الثكلى فخاطبها مواسيا:

_ نحن لسنا في بلاد الفرنجة التي تخصص سيارات إسعاف لنقل الحيوانات المريضة أو التي تعرضت لحادثة .... لقد أرحت صغيرك من الألم بذبحه...لكن ألم الذئبة سيكون مضاعفا ...فاطمئني!

أخرج الراعي من جرابه خطاطيف معدنية صغيرة وثبتها في جثة الجدي الذبيح، وبعد ربطها بخيط رقيق وشفاف الى جذع شجرة، قام منصرفا وعلى وجهه علامات الرضى والتشفي:

_ غدا سوف ألقاك أيتها اللعينة!

كانت العودة نحو الديار شبيهة بموكب جنائزي آدمي.... الكل يسعى الى التخفيف عن الثكلى التي انطلقت في ثغاء مستمر ابتدأ وهي تلقي نظرة الوداع الأخير على صغيرها .... ولم ينته والرعاة يفصلون شياه القطعان عند مدخل المدشر الذي وجدنا به الأقرع وزوجته ينتظران.... توجهت الأم نحو ابنها بلهفة:

_ كيف أمضيت يومك يا صغيري؟ هل نال منك الجوع؟

قبل أن يجيب الطفل تدخل الأقرع قائلا:

_ كفى تدليلا! فالولد قد أصبح رجلا ...ويمكنه الاعتماد على نفسه.

نظرت الحيزبون إلى زوجها نظرة استياء، لكنها لم تقل شيئا وأثناء إدخالنا للحضيرة سمعنا الطفل يحكي لوالديه ما جرى بعد الظهر.

_ سأرافقك غدا صباحا ...قال الأقرع بلهجة لا تخلو من مرح...أريد رؤية الشهباء التي أتت على العديد من حملاني وجدياني.

_ وهل أنت متأكد من ابتلاع الذئبة للطعم؟ سألت الزوجة.

_ فخاخ الخبير لا تخطئ.

قبل خلودنا للنوم أخبرنا تيس بأن الطريقة التي استعملها الكهل للإيقاع بالذئبة منهي عنها شرعا، ومحرمة قانونا في تقاليد البشر...لإن الذئبة ستبتلع صنارة مخصصة لصيد السمك في الماء وبأنها لن تستطيع الفرار لأن الألم سيمنعها من فعل ذلك.

_ هل يتشابه الأمر مع التسميم؟ ...سأل خروف شاب.

_التسميم أرحم من الصنارة لأن السم قد يقتل صاحبه وقد لا يقتله حسب صلابة جسمه مع ما يرافق ذلك من ألم أثناء ذوبانه في الجسم.... كم من عشبة سامة أكلها البعض منا ولم تقتله ...لكن الصنارة مسمار معدني يتشبث بالجسد ولا يذوب، وبما أنها مربوطة بخيط يثير تمزقا داخليا لدى المعني ...فإن الموت يصبح راحة أمام هذا الألم الرهيب....

لم تطل علينا العنزة في الصبح، بل حضر الأقرع شخصيا مرفوقا بولده الذي بدا عليه بأنه قد سلم أمره واندمج في عالم الرعي...أثناء خروجنا كنا في غاية الانضباط خوفا على أجسادنا من ضربات صباحية قد يطول ألمها اليوم بأكمله...صاحبنا لم يقترب منا، بل اكتفى بتوجيهاته الشفوية...اتخذنا سبيلنا نحو الاحراش والكلب يسهر على إظهار مهارته لصاحبه من خلال الذهاب والإياب بيننا، وذيله يتراقص مع نسيم الصباح بينما تموقع الصبي خلفنا كراع محترف.... أما الأقرع فكان ينظر الينا .... لكنه لا يرانا.

_ أعتقد بأنه يختار من سيباع منا بعد مشهد الذئبة المنتظر.... حدسي يخبرني بأن أحدنا سيؤخذ نحو المجهول... سواء ابتلعت الذئبة الطعم أم لم تبتلعه.

_ قد تكون أنت أيها المعتوه! فسر مستقيما... وكفاك من التذاكي. ! ...ودع عنك أمور أسيادك.... زمجر الكلب وهو يكشر عن أنيابه قبالة الجدي الذي أخفى صدمته من الاستفزاز، وتابع سيره بامتثال لأمر الكلب الذي زاد انتفاخا... وفوق منحدر تغطيه شجيرات جلها يابس، اقترب الجدي من الكلب ونطحه بقوة ليتدحرج بين الأحراش نحو الأسفل ...ولولا نتوءات نباتية لوصل الكلب الى قعر الوادي العميق .... عاد الكلب بمشقة إلى المسلك الطرقي المنحوت بقوائم الأنعام.... وقبيل وصوله خاطبه الجدي قائلا:

_ واحدة ...بواحدة ...وإن عدتم عدنا... لك أنياب ولي قرون... نحن متساويان من ناحية الأسلحة ...وكلانا في ملكية الأقرع.

نبح الكلب معلنا نيته الفتك بالجدي، وتوجه نحوه مهاجما، لكن الأقرع الذي شاهد الأحداث صاح قائلا:

_ تعال إلي أيها الكلب!

هرول الكلب نحو صاحبه معتقدا بأنه سيواسيه على سقطته في المنحدر، لكن هذا الأخير عالجه بضربة قوية من عصاه:

_ كل الخبز التي استهلكتها في منزلي لم تنفعك مع جدي صغير ...فابتعد عن قطيعي أيها الكلب! قال قوله وعصاه مرفوعة إلى الأعلى وفي نيته تثنية الضربة لولا ابتعاد الكلب الذي انصرف متقوسا من الألم، وذيله نازل من شدة الذل.

_هذا دين ...وسوف أرده اليك! خاطب الكلب الجدي.

_ لست أنا صاحب العصا التي قوست ظهرك.... فهاجم من ضربك الذي يمن عليك بما تبقى من خبزه، ولا يترك فرصة تمر إلا وأهانك...

حاول الكلب الهجوم مرة اخرى، لكن صوت الأقرع جاء حاسما:

_كفى...!

عم الصمت وتلاشت محاولات النقاش، فالأقرع عندما يتكلم يطاع أمره.... لم يفكر أحد من أعضاء القطيع قضم شيء من العشب المتناثر على جنبات الطريق خوفا من عقاب شوهد نموذجه على ظهر الكلب الذي سبقنا نحو مكان الفخ المنصوب للذئبة الشهباء .... وهناك وجدنا عددا من القطعان والرعاة والكلاب قد سبقونا.

الذئبة واقفة كنعجة مربوطة في السوق، وبجانبها ثلاثة جراء يطوفون حولها وبين الحين والآخر يلامسون ضرعها وهم لا يعرفون بأن سلكا معدنيا يمزق حنجرتها ويمنعها عن الكلام والحركة .... وحولها كلاب الرعاة يستفزونها بعضات على جانبيها في غياب أي رد فعل منها.... ولا أحد منهم فكر من الاقتراب من جرائها أو عضهم.

_واخيرا وقعت أيتها الملعونة! قال الأقرع بتشف...أتركوها لي!

_ لا أريدها أن تموت بسرعة! رد صاحب الفخ.... لقد خنقت جديي.

_ وكم عدد جدياني وخرفاني الذين خنقتهم؟ وخصوصا عندما كان ابني البكر راعيا للقطيع؟

_ يجوز قتل الذئبة صاح شيخ الرعاة ...لكن لا ينبغي التنكيل بها ...فهذا الأمر منهي عنه شرعا.

_ وهل منحها الشرع حق خنق خرفاننا يا ابن العم؟

_ وهل التنكيل بها سيمنع اللواتي سيأتين من بعدها من خنق صغار الماشية.... تلك غريزتهم...فلا تتصرفوا مثلهم!

_ العقاب من جنس الخطأ.... قال الكهل متشفيا ....

أعرض الشيخ عن الكهل، تم توجه نحو الأقرع سائلا:

_ لماذا أخرجت صغيرك من المدرسة يا ابن العم؟

_ المدرسة لم تخلق لأمثالنا ...رد الاقرع ضاحكا.

_ لقد آلمني منظره البارحة.... كل أقرانه يشهدون باجتهاده ...

_ ومن يتكلف بالقطيع بعد أن أصبحت أخته على وشك البلوغ؟

_ فلانة عاقلة وتستطيع الدفاع عن نفسها.... وكل الرعاة يهابونها ويحترمونها...فهي ابنة أختنا .... قل بأنك تريد إرسالها للمدينة كخادمة!

تغيرت ملامح الأقرع واحمر وجهه من الغيض قبل أن يرد:

_ هذا الأمر لا يهمك ...قد تكون العنزة ابنة قريبتك ...لكنني أنا والدها، ولا يحق لغيري التصرف في مصيرها ...فاترك بعض الحياء بيننا .... الكل يسير أمور أهله بالطريقة التي يراها مناسبة.

أسلوب خطاب الأقرع تجاه الشيخ، جعل هذا الأخير يغادر ساحة القصاص من ذئبة في حلقها صنارة.... ابتعد وعلى وجهه علامات الغضب والاستياء وبعض الذل.

في وسط الحلقة كانت الذئبة تنظر للكلاب برجاء، وحولها جراؤها الذين يطوفون ولا يعرفون ما يفعلون.... هم الذين كانت أمهم تتفنن في إخفائهم أصبحوا محط انظار الخرفان والجديان والكلاب وجوقة بشرية ...حاول أحد الجراء الرضاع لكنه لم يجد حليبا في الضرع.

_أمي هل جف حليبك؟

_ إنها النهاية يا بني! فاهربوا نحو أبيكم! انه على أطراف الغابة ينتظركم.

_ ليس لأبينا ضرع...ولن نغادر إلا وأنت معنا.

سالت دمعتان من عيني الذئبة قبل أن تتغلب على ألمها الرهيب لتقول بصوت مبحوح:

_هيهات هيهات يا بني .... سلك معدني مربوط بخيط صلب يمزق دواخلي ...لا أستطيع التكلم كثيرا ولا يمكنني الفرار...هيا اهربوا!

_ لن نغادر إلا وأنت معنا...رد جرو بإصرار.

نظرت الذئبة نحو الكلاب المحيطين بها ثم قالت بنفس النبرة التي خاطبت بها أبناءها:

_يا أبناء العمومة الأنذال! أريحوني من هذا الألم بخنقي ...واتركوا لأبنائي فرصة الفرار نحو أبيهم...لم يسبق لي أن آذيتكم ولا خنقت جراءكم...وسرقتي لبعض ما تحرسونه كان ضروريا لحياتي وحياة جرائي. ...

رد أحد كلاب الرعاة مزمجرا:

_ لا يمكننا فعل أي شيء دون إذن من أصحابنا الذين تعاقدنا معهم على الحراسة بأمانة.

_ صدق من سماكم بالكلاب، بيني وبينكم عمومة أهدرتم أواصرها طمعا في رضى أسيادكم الذين لن يرضوا عنكم .... لا أطلب شيئا سوى قتلا يريحني من الألم، ومسلكا لصغاري حتى لا ينكل بهم الرعاة...لقد رأيت ما فعلوه بإخواني عندما كنت صغيرة، ونجاتي كانت بفضل شهامة كلبية...أنا ابنة عمكم أيها الكلاب!

قفز كلب نحو حنجرة الذئبة التي لم تقاوم، ...لكن حجرا من أحد الرعاة أصابه.

_ اتركها لتموت ببطء أيها اللعين! قال صاحبه.

تجاوزت الذئبة ألمها وتحركت عند رؤية جرائها يبكون بعد ان فهموا بأن الخطر حقيقي.

تغامز الكلاب فيما بينهم...وبقفزة واحدة توجهوا نحو الذئبة بعد توزيع المهام فيما بينهم.... منهم من تعلق بعنقها...ومنهم من أمسك بباقي أعضاء جسمها ...وهي لا تحرك ساكنا...حاول الرعاة تخليصها منهم، لكن الحياة فارقتها، وعيناها تنظران إلى جرائها الذين حاولوا الدفاع عن أمهم بأنياب لم تنبت بعد.... سالت دموعهم وماتوا وهم لا يعرفون بأن ذلك الشيء يسمى بالبكاء.

تذكر الجراء وصية والدتهم فحاولوا الهرب في اتجاه الغابة، لكن الرعاة أمسكوا بهم وحولوهم إلى هدف لمباراة في تصويب الحجارة. وبعد وفاة آخر جرو، سمع الجميع عواء رهيبا ينطلق من جنبات الغابة.

_ قسم الذئب على الانتقام! قالت أمي بتأثر .... لن يرهبه الموت بعد أن أصبح منفردا....

_ سيرد الصاع صاعين ...فانتظروا زياراته! قال تيس طاعن في السن.

حاول الرعاة وأولياؤهم توجيه الكلاب نحو مصدر العواء الرهيب، ...لكن الكلاب لم تتجاوب مع تعليمات أصحابها:

_نحن كلاب فعلا ...! كان علينا حماية الصغار وتسريبهم نحو والدهم.... علق كلب الاقرع.

_ نتصرف بشماتة ثم نمارس رياضة الندم...تلك هي معيشة الكلاب ...لم يسبق لذئب أن هاجمنا أو قام بخنق أبنائنا...الصراع بين البشر والذئاب يتمحور حول الخرفان والجديان.... ونحن؟ ما دخلنا في الأمر؟

_لقد أجرمنا مجانا لفائدة أناس يحتقروننا ويطعموننا مما فضل لديهم. سننسى ندمنا بعد قليل ...وقد نشارك في نذالة أخرى.

عدنا للرعي متوجهين نحو نقطة الماء، رفع الكلاب أذنابهم تعبيرا عن فرحتهم بانتصار البشر على الذئب في معركة غنائمها نحن...ربط الأقرع التيس الذي تشاجر مع الكلب .... وجره في الاتجاه المؤدي إلى الطريق التي تمر منها السيارات.

_ تبا...! قال الكلب، كان على الأقرع الانتظار حتى أرد للتيس دينه.

_ عليك بحمد الله وشكره لأنكم لا تباعون هنا ولا تشترون...فلولا ذلك لجرك الأقرع عوض التيس.

ضحك كل من سمع التعليق، وانصرفت الماشية الى البحث عن طعامها مع ما يصاحب ذلك من صراعات حول الأعشاب التي تثير الشهية:

_ هلا وجدت مكانا آخر عوض مضايقتي؟

_ وهل المكان في ملك أبيك؟ الأرض أرض الدولة والعشب عشب الله.

_كفا عن التناوش فيما بينكما! قال الكلب بلهجة صارمة. لقد اتفقنا على تيسير مهمة صغير الرعاة!

_لكن ذلك لن يثنينا عن تصفية حساباتنا التي لا تعرفها أنت ككلب في خدمة البشر.

نبح الكلب بغضب وكشر عن أنيابه قبل أن تخاطبه أمي:

_ الخروف لم يسئ اليك فلا تعتدي عليه! لقد نعتك بما تتصف به فقط...فانت كلب ابن كلبة وكلب ...وهبت نفسك للبشر بثمن بخس ...هم لا يذبحونك هنا...لكنك تذبح معنويا من طرفهم في كل يوم.

أنزل الكلب ذيله، ثم انصرف خجولا من تقريع التي يعتبرها خالته.

_المسكين متأثر بمقتل ابنة عمه الذئبة.

_ ومصدوم من نطحة التيس الي لم يستطع ردها.

_ هل صحيح بأن بعض البشر يأكلون الكلاب؟

يأكلونهم ويتفننون في طبخهم .... كما تفعل الحاذقات من نساء مدشر البؤس.

_ كلب الأقرع يشبه الجدي الضامر، ولن يجد مشتريا في سوق الكلاب .... أما كلب الشيخ فسيتحلق حوله المتسوقون.

_يلزمك تأديب أيها الخروف الوقح!

_ هو يمزح فقط يا شيخ الكلاب...!

_ ليس للكلاب شيخ أيتها النعجة الضامرة.

فرق الكلاب مناطق الحراسة فيما بينهم تحت اشراف كلب الشيخ وأعطيت التعليمات الصارمة للجديان والحملان بعدم الابتعاد عن أمهاتهم، كما حرم عليهم الاقتراب من النباتات العالية حتى وان كانت شهية ...فالذئب المنفرد يوجد حتما في الجوار ودماء أسرته لن تذهب هدرا.

وصلنا الى النبع وارتوينا بينما كان الرعاة يتناولون غذاءهم.... ولم ينتبه أحد إلى صداقة نشأت بين الشيخ الراعي والطفل الوافد على المهنة.... لقد تقاسما الغذاء لينخرطا في حديث طويل حول ما يعرفه الفتى من تعلمات مدرسية.

بعد انتهاء حصة الطعام وما رافقها من قيلولة تريح الأعصاب والأقدام ، قام الرعاة الى قطعانهم ...علما بان قيلولة الرعاة لا تتطلب نوما بل استلقاء تحت ظل أينما وجد....لنكتشف بأنه قد ضم قطيعنا إلى قطيع الشيخ الذي يكتفي بالتوجيهات بينما يقوم الراعي الصغير بالأعمال التي تتطلب حركة قبل أن يعود لصاحبه من أجل إتمام أحاديث طويلة...أثناء رعينا المشترك تعرفنا على قطيع مختلف تماما عن القطعان التي كانت العنزة سببا في لقائنا بهم...لا أثر للأوساخ على أصواف الشياه وأوبارها...الكلب ضخم ونظيف كصاحبه، كما أن لغة تخاطبهم خالية من الكلام البذيء ومن الشتائم .

_ قطيع متضامن ومهذب...قالت أمي.

_ ونعاجه جميلات أضاف كبش عجوز.

وتيوسه لا يملؤون الدنيا ضجيجا من غير فائدة ...علقت عنزة على أبواب الشيخوخة.

_كلنا مملوكون للبشر ...أجاب زعيم قطيع الشيخ ...قد نختلف عنهم في المظهر لكننا نباع كما تباعون، ونذبح كما تذبحون ...فابحثوا عما يناسبكم من عشب، وتمتعوا بالحياة في انتظار البيع أو الذبح! تم توجه نحو أمي متوددا ...:

_ حملاك جميلان أيتها النعجة!

_ وهذا أيضا ابني ...ردت أمي بحياء وهي تشير الي.

اقترب الكبش ذو الفروة المزدوجة من زعيم قطيع الشيخ وخاطبه بحدة:

_ ابتعد عن نعجتي يا هذا! إنها لي بحكم انتمائها لعشيرتي...ومن واجبي حمايتها...

_ تحميها من الذئب أو من الراعي؟ رد الكبش ضاحكا لقد أطريت على الخروفين فقط، ولم أقل شيئا يستوجب غضبك.

_ أنا أسمي ما قمت به تحرشا...والتحرش يستوجب نزالا.

_ بحكم انتمائك الى بيئة قرعاء ...فأنت لا تفرق بين الغزل والتحرش...

_أنا أعرفك وأعرف ألاعيبك ايها الضخم المملوء بالهواء...فابتعد عن نعاج قطيعي قبل أن يصيبك مني مكروه.

ابتسم الكبش بلامبالاة ثم انصرف باحثا عن عشب يملأ به بطنه...لكن ضربة قوية أصابت جانبه...نظر بدهشة مقرونة بغضب إلى الكبش المعتدي ...لم يقل شيئا بل تراجع قليلا نحو الوراء ...ثم انطلق كسهم رغم ضخامة جسمه ليوجه ضربة صاعقة إلى رأس الكبش المهاجم الذي تهاوى نحو الأرض كورقة شجرة في فصل الخريف ...بعد أن فقد وعيه.

توحدت أنظار القطيعان تجاه المشهد...قبل أن يصل الشيخ والصبي يتبعه:

_ لقد فعلتها ثانية أيها المعتوه! ...بسرعة أخرج من جرابه قنينة ماء أفرغ بعض محتوياتها على راس الضحية ...بعد عدة محاولات إسعافية قام الكبش متمايلا ...وبعد أن نظر الى الجميع ببلادة ...توجه نحو العشب، وشرع في الرعي، وكأن شيئا لم يكن.

توجه الشيخ نحو قائد قطيعه وهش عليه بالعصا ليبتعد...تقبل الأخير العقاب ثم ذهب باحثا عما يرعاه ...وعندما وقعت عيناه علي، توجه نحوي وهمس:

_من مميزات الزعيم الضرب من غير شفقة عندما تدعو الضرورة لذلك ...فاحفظ هذه القاعدة الأساسية فأنت مشروع زعيم ...ثم نظر لأمي بتودد لا خجل فيه...وانصرف .... ومنذ تلك اللحظة وأنا أفكر في الزعامة ....

للهزيمة طعم مر في أوساط الأغنام والماعز...انهمك الجميع في الرعي بينما انزوى المهزوم بعيدا عن المجموعة ...مرة يأكل...ومرات يثغو وينطق بلسان غير مفهوم حتى ذهب إليه الكلب لإعادته الى القطيع.

اقترح كبشان صغيران على المهزوم القيام بهجوم مباغت على الضخم.... لكنه نظر اليهما ببلادة ثم أعرض عنهما، وشرع في الرعي بشراهة.

_كان الله في عونه مع هذه الهزيمة النكراء.... قال تيس.... ضربة واحدة! أعتقد بأن الصدمة سترافقه طويلا ...ألا تلاحظون طريقة التهامه للأعشاب؟

_ كل المخلوقات المقهورة ترعى ولا تفكر وإذا ما حدث وفكرت، فإن التوالد سيبقى هدفها الأسمى.

عند مدخل المدشر وجدنا الحيزبون تنتظر...شكرت الشيخ على مساعدته لابنها، وبعد فصل القطيعين، ولجنا الحظيرة وكلنا شوق للكلام.

أخذ كل منا موضعه المعتاد، أطلت علينا الحيزبون ثم انصرفت بعد إحكام إغلاق الباب...

_ علينا أن نفكر في الرد على هذا الضخم الذي مرغ شرفنا في التراب.

_تتكلم كالبشر عندما تذكر التفكير...! ...ولو كنا نفكر لما مكثنا في هذه الحظيرة القذرة، ننتظر ذبحا مباشرا او بيعا مؤديا إلى الذبح .... نحن مملوكون ...والمملوك لا شرف له.

_ندافع عن شرفنا في حدوده الدنيا وفق تقاليد سكان الحضائر.

_ وماذا تقترحون في هذا الشأن؟

_نختار اثنين لمهاجمته وإلقائه أرضا كما ألقى بزعيمنا.... وكل نعجة ردت على مجاملاته تقاطع فورا وتطرد من العشيرة.

أحسست بأن الكلام موجه لأمي، فبلعت غصتي ولم أقل شيئا لأنني لا زلت محسوبا على الصغار ...

_ يا ليت الأقرع يظهر ليأخذني حيث يأخذ الآخرين!

أحاديثنا الممزوجة بطعم الهزيمة عجلت بنوم كل سكان الحظيرة ...فعندما يحضر الذل تغيب الكلمات...قبل طلوع الشمس فتحت العنزة باب الحظيرة وعند رؤيتنا خاطبتنا ضاحكة:

_ ها أنا قد عدت اليكم أيها الأشقياء، لن أرافقكم في هذا اليوم لكنني سأراقب افعالكم عن بعد.... وبعد أن ساعدت أخاها على إخراجنا شرعت في تنظيف الحظيرة وهي تخاطب آخر مغادر الذي لم يكن سوى الزعيم المنهزم.

_ هيا أيها الزعيم! الزعماء يقودون القطيع ولا ينقادون خلفه. هل تمت الإطاحة بك أثناء غيابي القصير عنكم؟ ما أغرب هذا القطيع!

أصر الكبش المهزوم على المشي في نهاية القطيع رغم تشجيع الكلب له:

_هيا يا صديقي ...تحرك! هزيمتك ليست نهاية الدنيا ...لديك من الوقت ما يكفي لرد الصاع صاعين...!

_ ابتعد عني أيها الكلب!

طاف الكلب على أفراد القطيع محاولا نشر بعض المرح، لكن التجاوب معه كان منعدما، وقبيل الوصول إلى مكان بداية الرعي صاح تيس:

_ المقاطعة واجبة على الجميع...! لتنطلق الشعارات الداعية للمقاطعة بمشاركة الصغار والكبار ...باستثناء أمي التي حاولت إسكات أخواي عن ترديد شعارات لا يفهمان معناها.

_ يبدو أنك غير معنية بقرارنا! قالت نعجة بصيغة لا تخلو من استفزاز.

_ أنا مع القطيع في كل ما يتخذه من قرارات، لكن الرأي رأي الرعاة...

_علينا أن نقاطع وفق امكانياتنا...لن نتبادل مع الفريق الآخر التحية، ولن نشترك معهم في الرعي، ولن نربط مع أعضائه أية علاقة! أتفهمين؟ لا مكان للعلاقات العاطفية بيننا وبين العدو ...!

فهمت معنى الرسالة التي وجهت الى أمي وتابعت السير كأنني لا أفهم ...وفي نيتي تغيير الأمور في القريب العاجل ...عند الوصول إلى بداية المرعى هرول الصبي نحو الشيخ وسلم عليه بما يليق من ود واحترام، واندمج جديان القطيعين وخرفانهما في مرح صبياني، بينما احترم كبار قطيعنا القرار المتفق حوله ...لم نرد على ترحاب المستقبلين وانصرفنا للبحث عما يسد جوعنا فوق ارض طال انتظارها للمطر .... فجأة تعالى النباح وانتصبت آذان الكلاب وهي تنظر متحفزة الى نفس الاتجاه...

_ الذئب المنفرد في المحيط! قالت أمي بذعر وهي تجمع أخواي بين قوائمها...وحد الرعب القطيعين فصارا قطيعا واحدا....

لكنه لا يظهر! فكيف أحست الكلاب به؟

_لقد اشتمت الكلاب رائحته ...الذئب المنفرد لا ينظف نفسه بعد ذهاب أسرته حتى يموت.

تكاثر النباح ، وقلق الرعاة ، وكل واحد فيهم يراقب شياهه خوفا من تجاوزها لخطوط حمراء تؤدي بها إلى الهلاك....على غير عادته وفي خرق سافر لتقاليد الصراع ما بين البشر والحيوانات ...ظهر الذئب للجميع على ربوة لا مكان فيه للاختباء ،أمام دهشة الكلاب والقطعان والرعاة ...تضاعف استغراب المتابعين وهم يرون الكبش

المهزوم في نزال أمس ينفلت من المجموعة ويتوجه بسرعة فائقة نحو الذئب محاولا نطحه ...لكن ها الأخير تجنبه برشاقة ، وأخذ بأسفل حنجرته ، ليتركه بدون حركة ، قبل أن يقفز فوق جذع شجرة يابسة موليا من حيث أتى وهو يصيح :

_كنت أرغب في خنق كلب من الكلاب التي باعت نفسها للبشر بأرخص الأثمان .... هذا تسبيق لما فعلتموه بزوجتي وبأبنائي...وللانتقام بقية .... ثم غاب وهو يعوي.

_ لقد فعلها اللعين! قال الشيخ وهو يهرول نحو الكبش المخنوق الذي يجود بروحه...وبعد أن وصل اليه جس نبض عنقه، ثم صاح منشرحا:

_ إنه لايزال حيا ...سأحلله حتى لا يضيع !... بسرعة أخرج سكينا من جرابه، وقام بنحر الكبش أمام اندهاش الجميع، ورعب الخرفان والجديان.

نظر الشيخ الى الراعي الصغير الذي شرع في البكاء، وخاطبه بلطف:

_لا تحزن يا بني ...! سنسلخ الكبش ثم سنأخذ لحمه إلى المسجد، وهناك سيتم توزيعه على كل أسر المدشر بمقابل، وفي ذلك تخفيف من خسارة والدك.

_ سيضربني أبي وسيحملني مسؤولية ضياع كبش غال....

_ الكل شاهد على ما حدث... الذئب المنفرد سيعود حتما...وإنهاء مسلسل القلق هذا يقتضي قتل هذا المتوحش في أقرب الآجال.

لست أدري كيف وصل الخبر للأقرع الذي أطل علينا بعد قليل ممتطيا أتانه وعمامته موضوعة من غير إحكام فوق رأسه.... وما أن رأى كبشه يسلخ حتى صاح:

_ على الله الخلف.... على الله الخلف...ثم توجه نحو ابنه محاولا ضربه ليحول الحاضرون بينه وبين فعل ذلك.

_ الطفل لم يغفل عن القطيع ...! والكبش هو من توجه نحو الذئب المنفرد ...

_لم أكن أعرف بأنني أملك كبشا له قلب كلب...! وهذا الذئب اللعين لم يجد سوى كبشي؟

_هذه إرادة الله يا فلان!

_ ولماذا لم تصب إرادة الله كبشك الضخم هذا؟ وأشار اليه.

توقف الشيخ عن سلخ الشاة ليتوجه نحو الأقرع مخاطبا اياه بحزم:

_ يا فلان ...! الطفل لم يخطئ، والذئب المنفرد يقدم الموت على الحياة ...وخسارتك لن تكون كاملة حول كبشك الذي مضى...سيقسم اللحم في إطار الوزيعة على سكان المدشر، خسارتك ليست كاملة بعد أن لحقت مديتي عنق الكبش قبل موته ...ولك أن تحتفظ بالرأس والأحشاء ...أو وضع ذلك في أطار حصة ونصف.

جواب الشيخ أقنع الاقرع الذي تقدم نحو الذبيحة ليتمم سلخها بمعية بعض الرعاة.

بعد الاتفاق انصرفت القطعان إلى عشبها والرعاة إلى أنعامهم ...بينما رابط الكلاب قبالة الذين يتممون السلخ في انتظار أعطيات غير صالحة للأكل الآدمي:

_ هؤلاء الكلاب الملاعين لن يغادروا حتى يتلقوا نصيبهم من لحم الكبش، وأثناء ذلك قد يعود الذئب المنفرد.

_الذئب المنفرد ليس غبيا حتى يهجم مرتين في اليوم...هو يسعى إلى إطالة مسلسل الخوف لدى الكلاب والشياه.... قد يكون في الجوار مراقبا للأمور ...لكنه اليوم، لن يهاجم...قال الكهل الذي شارك في عملية السلخ بصمت تام.

خلال تنازع الكلاب حول بقايا عافتها أنفس البشر، توجه زعيم قطيع الشيخ نحوي قائلا:

_ الكلاب تبقى كلابا! بمجرد رؤية اللحم تنسى عشرتنا، وتلتهم بقايانا ...فتبا لها تبا!

_لكنها لا تخنقنا كما يفعل أبناء عمومتها الذئاب.

_ لأن البشر قد دجنهم كما دجننا ...هم يطبقون تعليماته ...ونحن موضوعون رهن إشارته.

_ نحن بين مطرقة الراعي وسندان الذئب. قالت أمي التي كانت تتابع حوارنا في الجوار.

_ أحسنت قولا أيتها النعجة الحسناء! قال الكبش الضخم دون حياء لترتفع شعارات من أعضاء قطيعي الأصلي:

_ المقاطعة.... المقاطعة...! أثناء ترديد الشعار تجمع القطيع بخرفانه وجديانه في مكان منعزل بمن فيهم أمي التي كانت تطوف حولها شكوك الخيانة ...لكن تيسا بشعا بقي الى جانب عنزة مزدوجة اللون ...معرضا عن نداءات وجهت اليه:

_ لن يأخذك الشيخ لحضيرته أيها العاشق الولهان...! قالت عنزة نحيلة تنتمي لقطيعنا.

ارتفعت ضحكات ساخرة من هنا وهناك ليجد التيس العاشق نفسه في حرج، فلم يجد بدا من الرد:

_ تبا لك أيتها النحيلة العجفاء.... وتبا لغيرتك!

_ ومن يغار على تيس انتهت مدة صلاحيته أيها الأجلف؟ بالأمس فقط أنشدت في حقي سبع قصائد غزل من الركاكة بمكان ...لو أنك صمتت فقط لما أعرضت عنك ....

_تعالي إلى قردك وخذيه! صاحت العنزة الحمراء ...لقد أصم أذناي بصوته المزعج ...ولا حاجة لي به.

أثناء ضحك القطيعين تقدم تيس من الوافد العاشق، ووجه له ضربات متتالية ليغادر صاحبنا معشوقته مضطرا .... ويعود إلينا مهزوما.

استأنفت الكلاب مهامها في الحراسة بعد أن شبعت بطونها من بقايا الكبش الذبيح الذي حمل الاقرع جثته على أتانه وقفل راجعا إلى الديار بعد الاتفاق على موعد بخصوص توزيع اللحم.

كانت العودة قبل الأوان بقليل بناء على رغبة الرعاة في حضور مراسيم تقسيم لحم رفيقنا .... جل الكلاب كانت ترفع ذيولها مبصبصة وبينها سرت نظرات مرحة دون حاجتها إلى الكلام ...لكن الشياه لم تكن غبية أمام هذه اللقطات:

_ يوم الكلاب كان جيدا بامتياز! قال خروف على أبواب المراهقة.

_ أتمنى أن يكون يومك قريبا جدا، حتى نستفيد من بقاياك في النهار ...ومن عظامك المطبوخة خلال الليل ...الذئب المنفرد عائد لا محالة...وتسرعك في الكلام تقابله سرعتك في الحركة .... أتمنى أن تكون من نصيبنا بأكملك، لأن الشيخ لن يلحقك بمديته حتى تصير حلالا لبني البشر.

_ وقى الله أخي الأصغر من أماني الذئاب والكلاب وأنيابهما .... قال كبش في الجوار ...وقبل أن يكمل الكبش قوله، هاجمه الكلب بعضة، ليرد عليه الاخر بنطحة جعلته يتلوى من الألم .... كان ذلك قبالة الراعي الصغير الذي وقف حائرا بين المتصارعين .... لولا صراخ أحد الرعاة:

_ اضرب الكلب أيها الصغير! فمكانه يجب أن يكون على أطراف القطيع، وليس في وسطه كالنعاج.

_ لولا هذا الآدمي الصغير الذي لا يدري ما يقع ...لفتكت بك فتكا ...! قال الكلب وهو يبتعد خوفا من ضربة الراعي المبتدئ.

_سأنتظر فتكك أيها الكلب الذليل. يا من يبيع كرامته للبشر بأبخس الأثمان...كسور خبز يابس وما تعافه الأنفس البشرية .... ومع ذلك فإن ما يفكر البشر في ضربه .... هو أنت!

عاد الكلب كالسهم واقتنص عضة من رجل الكبش الذي تلوى من الألم، ثم ولى هاربا خوفا من عصا الراعي الذي كان قريبا.

_ يقولون بأنك أمين ووفي أيها الكلب الحقير! أنت أمين فقط في القيام بالأشغال القذرة التي يسندها اليك البشر بمقابل أرخص من رخيص.... الذئاب تبحث عن رزقها بشرف...وعندما تضبط تموت بشهامة.... أما أنت فإن الذل يرافقك من المهد إلى اللحد كما يقول أسيادك.

_ أتمنى رؤيتك قريبا في قدر أيها الكبش البئيس...عضتي ستصيبك بالمرض...وفي القريب العاجل سوف تذبح.

_ الذبح أفضل من عيش الكلاب.

وصلنا الى الحظيرة فأدخلتنا العنزة التي ظهرت أنوثتها بشكل جلي.... أثناء ذلك رأينا الطفل يتوجه نحو وسط المدشر حيث يوجد المسجد ...والكلب يتبعه.

_ الكلب يبقى كلبا! قال الكبش المعضوض ...اتبع سيدك إلى مكان توزيع لحم أخينا...لن يعطونك شيئا هناك .... لكنك ستبصبص بذنبك كعادتك...!

لم يرد الكلب على شتائم الكبش، بل تبع صاحبه الصغير وذيله مرفوع الى الأعلى.

انتشرت رائحة حريق حادة في أرجاء الحظيرة، وشرع صغار الجديان والحملان في السعال.

_ رأس صديقنا يشوى! قالت أمي بلا مبالاة.

_ رأسه وقوائمه ...أضاف خروف وافد على القطيع...هنا يلتهمون كل شيء، بينما في العديد من بلدان العالم لا يأكلون رؤوسنا وأحشاءنا وقوائمنا.

_ ولذلك تكتسب كلابهم صحة وعافية، ويزداد حجمهم ككلب الشيخ.

_ للكلاب هناك مأكولاتهم الخاصة بهم، يوجد البعض منها في المدينة القريبة منا حيث يصرف الأقرع دراهم بيعنا ...تحتوي هذه المأكولات على مقويات لكنها غالية بالنسبة لأصحابنا الذين لا يجدون ما ينفقون.

_ اتساءل لماذا يتشبث كلاب المدشر بأصحابهم المعدمين ...

الأمور هكذا تسير ...كل وحظه أثناء مروره فوق الأرض...علق تيس طاعن في السن.

_ حجمك كحجم الكلب ...! قال أحد أخواي موجها كلامه للتيس الهرم.

_ وهذا سبب بقائي حيا إلى هذا الوقت ...هم ينتظرون ازدياد كتل اللحم في جسمي ...وذلك الأمر لن يحصل بفعل هموم جاثمة على صدري...أتمنى لك لحما طريا وشحما شهيا يعجل بذبحك في أقرب الآجال.

_ حفظ الله ابني من كل سوء! خصوصا وأنا على قيد الحياة ...قالت أمي بامتعاض شديد.

_ إذن فلتعلمي ابنك قواعد اللياقة في مخاطبة كبار السن أيتها النعجة.

_ في هذا الأمر معك حق يا شيخنا ...! أعتذر نيابة عن هذا الصغير.

_ قبلت الاعتذار قال التيس العجوز بلطف ...إذا كانت المراعي أمكنة لالتقاط الرزق، فان الحضائر يجب أن تكون مدارس لتلقين قيم الأغنام....

رائحة الدخان التي اشتدت منعت سكان الحظيرة من متابعة نقاشهم الهادئ...بعد انخراط الكبار والصغار في نوبات سعال:

_ رأس صاحبنا صلب...ولذلك أتعبهم في الشواء.

_وهل يوجد في رؤوسنا لحم يستحق هذا العناء؟

_ لا يوجد لحم كثير.... لكن أمخاخنا مطلوبة...يقولون بأنها لذيذة.

_المخ أكلة مفضلة لدى البشر، وأكل الأمخاخ رياضة شعبية لديهم يمارسونها بكل شغف.... حتى أن الكبار منهم يحرمون على الاطفال استهلاكها حتى يستأثروا بها لأنفسهم.

_ سمعت راعيا متعلما يقول بأن المخ هو من يوجه صاحبه في كل مناحي الحياة. فهو الذي ينتج الذكاء.

_ نحن لسنا بأذكياء ولا علاقة لنا بالأمر، نحن خلقنا لنفترس من قبل الذئاب، أو لنؤكل من طرف البشر ...فلا حاجة لنا بأمخاخنا.

_ ليست كل الأمخاخ مشغلة ...قال التيس العجوز ...أمخاخنا معطلة وكذلك أمخاخ الكلاب .... فلو أن هذه الاخيرة استعملت أمخاخها ...لكان البشر في خدمتها بفعل قوتها...

_ أتمنى أكل مخ الأقرع لأصير ذكيا.

_لا علاقة للأقرع بالذكاء، بل هو أبلد منا بكثير، لكنه يغطي على بلادته بالعنف...الكلب أذكى منه، لكن ذكاءه ذليل ...ويبقى الذئب من أذكى المخلوقات لأنه اختار الحرية وعدم التبعية، رغم ما يرافق ذلك من مخاطر.

_ يقولون بأن مخ الضبع مطلوب في عالم الإنسان.

_ طلبه المتزايد كان سببا في انقراضه، هو مطلوب لأنه يستعمل في تليين مواقف الذكور تجاه الإناث من البشر...مخ الكلب يكفي ...لكن البشر لا يفهمون.

أطل علينا الكلب من فتحة في سياج الحظيرة المهترئ، وكان ذلك سببا في قطع سمرنا الفكري:

_ لم يجدوا مخا في جمجمة صديقكم! نقل الينا الخبر ثم انصرف.

_ أما أنت! فما أسعدك بمخك الذي قادك الى الخضوع والكلبنة! قال الكبش الذي بينه وبين الكلب عداوة.

أطل الكلب للمرة الثانية وحدق في مصدر الصوت ...ثم غاب ولم يعد.

خيم صمت قبل أن تنطق امي:

_ من يخرج لمبارزة ذئب منفرد...لا يتوفر على مخ طبعا.

_ قد تكون ضربة صديقك هي التي حولت مخ صاحبنا الى سائل ....

_ هو ليس صديقي! قالت أمي باستياء...لقد حاول التقرب مني لكنني صددته ...فالزمي حدودك حتى لا أكشف لسكان الحظيرة كل سلوكاتك...!

_أتحداك أن تذكري حملا لي والده ليس من أبناء الحظيرة ...أما أنت... !فخرفانك وخروفاتك يتشابهون مع أبناء الأمم المتحدة...كما يقول البشر.... أم واحدة وعدة آباء.

كلام النعجة كان بمثابة دعوة إلى العراك ...وفعلا قامت معركة حامية الوطيس سلاحها رؤوس قرعاء .... لكنها أشد شراسة من تناطح الأكباش...حاول أحد التيوس إطلاق رهان تصاحبه تحليلات حول المنتصرة في هذا النزال الثنائي...لكن الكبش العجوز صاح:

_ وهذا تأكيد على أن أمخاخ الشياه لا تشتغل ...! كان بالإمكان تجاوز هذه الأزمة التي أثرت على راحتنا بعد يوم شاق بواسطة سرد الوقائع ...والرد على الاتهامات بالحجة رغم أن ممارسة الحرية الفردية ليست عيبا في عالم الحيوانات .... أمخاخكم نائمة في جماجمها .... فناموا وأريحونا من المزايدات ...!

كان الصباح باردا عندما فتحت العنزة باب الحظيرة وأخوها يتبعها...لم تعد تنظر إلينا باهتمام .... هي تقوم بواجبها في مساعدة أخيها، ثم تعود للبيت مسرعة وكأنها تفر من ماض لا يعجبها.

_ لقد كبرت العنزة! قالت نعجة ونحن نغادر الحظيرة ...قريبا سيزوجونها بأقرع يشبه والدها.

_ العنزة قد تعود للمدينة لاستئناف عملها كخادمة...أوضح الكلب الذي يمشي وسط القطيع.... لقد جاء الذين فرت من ديارهم، وأكلوا دجاجة من دجاجات الحيزبون...واتفقوا على عودتها المشروطة.

_ قلت بأن العنزة قد فرت من منزل مشغليها ...؟

_ هذا ما حصل فعلا...المشغلون اتهموها بالسرقة ...وهي اتهمتهم بسوء المعاملة وبأشياء اخرى لا تنجبر سوى بالدم.... لولا تدخل السمسار الذي لاقى بين الطرفين ...لكانت العنزة الآن في السجن...وكذلك والدها.

_ ما هو السجن ...؟ يا أيها الكلب...!

_ السجن حضيرة كبرى مسيجة بسياج إسمنتي، أبوابها الحديدية مغلقة بإحكام ولا تفتح إلا عند الضرورة .... وهي مقسمة الى ثلاثة أقسام ...قسم للذكور وآخر للإناث وثالث لصغار السن ...هناك يأكل السجناء وينامون ويشربون ...ولا يغادرون إلا بعد انقضاء مدة عقوبتهم، أو بمماتهم.

_ وكيف يدبرون امورهم هناك؟

_ حسب طريقة عيش تسمى بالقانون الداخلي.

_ وهل يتزاوجون فيما بينهم هناك؟

_ بلدان تجيز فعل ذلك...وأخرى لا تسمح.

_ كان الله في عونهم ...عيش الكلاب أفضل من عيشهم.

قبل أن يكمل السائل كلامه، أحس بعضة مؤلمة على مستوى فخده.

_ هل جننت أيها الكلب؟ قال الخروف متأذيا.

_ لأنك لم تجد تشبيها آخر لعيش السجناء سوى عيشنا.

_لا أعتقد بأنني قد جرحت شعورك بكلامي...فأنت كلب، وبالكلب تضرب الامثال بخصوص عيش الذل.

_ أما عيشكم فما أعزه ...وما أرقاه ...! قال الكلب ...أنتم قطيع موضوع رهن إشارة البشر ...يذبح منكم ما يشاء ويفعل بكم ما يريد مقابل سياقتكم الى أراضي جدباء لم تعد تنبت شيئا.

_ وأنت مساعدهم الأمين ...تأكل ما يجودون عليك من بقاياهم ...وتحرس ديارهم...ومع ذلك يضربونك في كل المناسبات...وكثيرا ما ينكلون بك من غير سبب.

قامت معركة بين الخروف والكلب، وأمعاء الطرفين فارغة، لم يجد الصبي صعوبة في إنهاء النزال بفضل عصاه التي استعملها أول مرة...وكان للكلب النصيب الأوفر منها.

ابتدأ اليوم بشمس قوية تبادل الرعاة تحتها التحايا من بعيد، لأن اختلاط القطعان غير مرغوب به عند بداية الرعي. انطلقت عملية البحث عن الكلأ في الأحراش المسكونة بالزواحف والحشرات ...أحد الرعاة أمسك بثعبان من ذيله ليلتحق به الرعاة لقتله بعد التنكيل به رغم أنه لم يسبق له أن عض أحدا منهم...خلال استمتاعهم بالمشهد هجم الذئب المنفرد، والضحية لم يكن سوى خروف من خرفان الكهل ...لأول مرة شاهدت الذئب يجري نحو الغابة كجحش حديث الولادة يعود إلى أمه بفرح.

لم يلحق الشيخ الخروف بمديته ليذبحه ...فتأسف للأمر وتوجه نحو الكهل مواسيا...لكن صاحبه أعرض عن مواساته، وقام بتعليق الخروف على غصن شجرة يابسة ...وبعد أن أرسل أحد الرعاة لجلب الماء، شرع في سلخ الشاة ...اعتقد الشيخ بان زميله سيكتفي بأخذ فروة الصوف الجميلة، لكن رؤيته للكهل وهو يشق بطن الخروف أثارت ثائرته فصاح:

_ ماذا تفعل يا هذا؟ هل تريد إطعام سكان المدشر من لحم المخنوق؟

_ ومن قال لك بأنني أنوي فعل ذلك؟ هذه شاتي ...سأنقلها لداري، وسأطعم بها نفسي التي تبقى لها الأسبقية عن الكلاب والثعالب والذئاب ...من أراد أن يلتحق بي فمرحبا به ...خارج نظام الوزيعة...ومن أبى ...فله ذلك.

_ ومتى كنا نغذي أنفسنا بلحم حرام؟

_ الحرام هو الجوع والفقر والحرمان ...هذا الخروف استنزف مني جهدا...كنت انوي بيعه لقضاء حوائج كانت نفسي تحن إليها ...وبما أن الأمر لم يكتب فلا يمكن أن أحرم نفسي مرتين ...

_ اللهم إني أعوذ بك من غضبك! قال الشيخ مستنكرا.

_ السكن في هذه البقعة نوع من غضب الله .... فابتعد مني وعد إلى شياهك ...! فقد يرجع الذئب الذي أصبح مشتركا معنا في أرزاقنا.

_ كل ذلك بسببك أنت!

لم يجب الكهل على اتهام الشيخ ...بل استمر في سلخ الشاة والكلاب تطوف من حوله...وبين الفينة والأخرى يلقي اليها بما لا يصلح للأكل الآدمي...وهي تتصارع حول ذلك فيما بينها.

بعد إتمام السلخ قام الكهل بإشعال نار شوى عليها بعضا من أحشاء شاته، وقدم دعوة مفتوحة لتقاسم الطعام معه...من الرعاة من لبى الدعوة بفرح، ومنهم من أحجم عن ذلك تنفيذا لتعليمات الشيخ ومنهم من أكل خلسة حتى يستمتع بالشواء ويتحاشى نظرات الشيخ.

_ أنتم تأكلون الميتة! لا فرق بينكم وبين الكفار!

_الكفار هم من صنعوا ثوب جلبابك الأنيق، وتجهيزات منزلك وسجادة صلاتك...وبفضل دراهمهم أصبحت تمارس الرعي من باب الهواية.

استطاع الشيخ إقناع الصبي وبعض الرعاة بعدم أكل لحم المخنوق، لكن الأغلبية استفادت من هذه الوجبة الدسمة التي أهدتهم إياها أنياب الذئب المنفرد.

تعزز المشهد الرعوي في أحراشنا برعاة من نوع خاص فرض عليهم الرعي بسبب العطلة الصيفية التي تغلق فيها مؤسسات التعليم أبوابها ،منهم تلاميذ المؤسسات التعليمية وطلبة الجامعات الذين يعودون لديارهم قسرا...وبما أن المدشر لا يقدم لهم مكانا لتمضية الوقت خلال النهار ،فإن الأحراش تبقى ملاذهم الوحيد بحيث يرافقون أقاربهم المرسمين في الرعي ،وهناك يلتقون فيما بينهم لمناقشة أمورهم ، ومحاولة التأثير على محيطهم من خلال نقاشات غالبا ما تختمها حالة الطوارئ التي تفرضها إطلالة الذئب المنفرد ، أو تنهيها مشاحنات كلامية فيما بينهم لا يعرف الرعاة العاديون أسبابها .

الرعاة الموسميون يختلفون شكلا ومضمونا عن زملائهم الأصليين ...ثيابهم أنيقة لا تتناسب مع المهام التي يحاولون القيام بها تأثيثا للوقت ،كما أن بشراتهم أصبحت فاتحة بفعل النعيم المؤقت الذي يعيشونه خلال أوقات دراستهم ، لكن آراؤهم مختلفة .....منهم من يحاول السير على خطى الشيخ الورع الذي يدعو الى التشبث بالدين والعمل على نشر تعاليمه ، ومنهم من يساير الكهل الذي لا يصلي ..وتروج حوله أخبار بأنه لا يصوم ...ومنهم نماذج تحاول التشبه بالأقرع الذي يحب الحياة بكل ألوانها ...فهو يصلي ويصوم ويعاقر الخمر ويجري وراء أهوائه ...كريم خارج البيت وبخيل داخله.

نقاشات طلاب العلم فيما بينهم تركت بصماتها على الرعاة الذين استعاروا منهم تسميات كانوا يضحكون وهم يرددونها:

_عد أيها التيس المتسرع الذي لا يحسب خطواته، سلط الله عليك ذئبا غاشما!

_يا ايها الكلب الانتهازي... ! راقب القطيع وكن يقظا!

_ امنح الأسبقية للكبش يا أيها الخروف الوصولي.!

_ الكهل تقدمي متخلف، والشيخ رجعي مستنير ...والأقرع غارق في فوضاه التي تخلق سعادته.

ضحك الرعاة حول هذه التسميات التي وفدت على عالم الرعي، يقابله استنكار الشيخ عندما يتم الاقتراب من الدين خلال الأحاديث:

_ستحاسبون على اقوالكم قبل أفعالكم، فإثم القول يتساوى مع وزر الفعل.

_ ألم يكفك هذا الحساب يا عمي الشيخ؟ ماء قليل وفقر مدقع وبطالة قاتلة، ووالدين ينظرون إليك بندم لأنهم أنفقوا في سبيل تعليمك على حساب أخواتك وإخوانك....

عندما تشتد نقاشات البشر فيما بينهم، يقل تركيزنا أمام تشعب أحاديثهم...فلا نجد بدا من الإعراض عنهم قصد الرعي الذي يصاحبه تجاذب أطراف الحديث فينا بيننا.

_مشاكل البشر في تدبير أمور حياتهم أكبر بكثير من مشاكلنا .... الفرق بيننا وبينهم أنهم أحرار لا يذبحون!

_حريتهم نسبية ...تحددها قوانينهم ، وعبوديتهم تفرضها عليهم احتياجاتهم ...أما طرق ذبحهم فكثيرة ومتنوعة ...فهم يذبحون قعودا وقياما...مستيقظين ونياما ...منهم المذبوح الذي لا يحس بذلك ...ومنهم من يصرخ بأنه مذبوح وهو ليس كذلك...هم أيضا يتحولون الى سلعة تباع وتشترى في الكثير من الأحيان...منهم من يعرض نفسه بنفسه ...ومنهم من يضع نفسه رهن إشارة الآخرين ،وأجرته في ذلك قناعات مشتركة.

_ كيف ذلك يا شيخ الاكباش؟

_البشر مسكونون بحب الامتلاك، مقابل ولادتهم لأبنائهم يعتبرون بأن الأبناء ملك لهم ...وبما أن الجوع يسكن في قلوبهم وأمخاخهم ، فانهم يتسابقون طمعا في امتلاك ما يصلح لهم وما لا يصلح...منهم من يمتلك ما يكفيه للعيش عدة قرون وهو يعرف بانه لن يعيش تلك المدة...نسبة مهمة منهم تعيش رعبا من غد قادم بدون مؤونة ، ولذلك يبيعون أنفسهم لمن يتمكن من ايهامهم بأنه قادر على تمكينهم من حياة تناسبهم؛ فيها الأكل والشرب والملبس والسكن والمركوب والتزاوج والإنجاب....لا أحد فيهم يفكر في الموت ...وحتى إن ذكره في خطابه ...فإن وراء ذكره منفعة.

_ حكيم أنت يا شيخ الأكباش!

_الحكمة صفة آدمية ولا علاقة لنا بها.... لكنها أيضا سلعة يسعى بعض البشر إلى استغلالها والاستثمار فيها قصد الحصول على بعض الامتيازات.... هيا! ابحث عن العشب واحذر من الزواحف في هذا اليوم القائظ! وتجنب الأعشاب الضارة التي قد تصيبك بمغص سيكون سببا في نحرك! ... موتنا الطبيعي يعتبره البشر خسارة كبرى... لأن في ذلك ضياع لرزقهم المتمثل في حليبنا ولحومنا وأصوافنا ...وحتى عظامنا.

انصرف الكل إلى الرعي في محيط الغابة التي يوجد بالقرب منها نبع ماء يزداد شحا بسبب كثرة الطلب على رحيقه من قبل رعايا البشر خلال النهار وسكان الغابة على امتداد الليل ...وهناك اجتمع الرعاة الرسميون والمؤقتون والذين فرض عليهم الرعي من أجل أخذ قسط من الراحة بعد تناول ما توفر لديهم من طعام.

انزوى الشيخ غير بعيد عن مجمع الرعاة، وبعد تجديد الوضوء والصلاة نادى على الراعي الصغير من أجل تقاسم غذاء متميز عن طعام باقي الرعاة.

_لماذا يصر هذا الشيخ الوقور على الرعي، رغم أنه بإمكانه تشغيل راع لهذه المهمة؟

_ إنها هوايته في خريف عمره ...قال الكهل مجيبا عن تساؤل أحد الطلبة الرعاة...الناس تهوى الحياة الرغيدة وما يصاحبها من أسفار ومأكولات ومشروبات...وصاحبنا يعشق الشقاء ...لقد حاول أبناؤه ثنيه عن الاستمرار في نشاطه ...لكنه أبى.

أثناء تتبعنا للحوار الدائر بين البشر ...نبهنا الكلب بلهثة قوية قائلا:

_ لقد جئتم الى هنا للرعي وملء بطونكم! فلا تضيعوا الوقت فيما لا يفيدكم...! أحاديث البشر لا تفيد الاغنام في شيء.... لكن رعي الشياه يفيد الإنسان.

_ وأنت تضع نفسك رهن إشارة الانسان الذي يطعمك من بقاياه، ويضربك بعصاه سواء أكان مبتهجا أم حزينا ...إذا نبحت على الزائر تضرب.... وإذا لم تنبح تضرب أيضا...

تلاشى هدوء القيلولة بسبب المعركة التي قامت بين الكلب والتيس، وبعض الرعاة ينظرون إليهما بلامبالاة ...الكلب يعض والتيس ينطح والصبي إلى جانب الشيخ يستعرض عليه ما علق بذهنه من تعلمات مدرسية.

_ علي أن أقوم لتفريق هذين الملعونين ...قبل أن يؤذي أحدهما الاخر فيحاسبني والدي على ذلك.

_الصراع بين الحيوانات أزلي كصراع الإنسان مع أخيه الإنسان .... وأنت لا تستطيع إيقاف نشاط فرضته الطبيعة فرضا ...إنهما يبحثان عن حل لمشكلهما بشكل مباشر ...ولا يختبئان وراء المعاني كما يفعل الإنسان .... اتركهما لصراعهما! فقد يتصالحان في القريب العاجل، وقد يشكلان حلفا ضد عدو ثالث بعد ذلك...إذا ما تدخلت بينهما فقد تخرق مبدأ تكافؤ الفرص بضربك لأحدهما دون الآخر...

انتهت معركة الكلب والتيس بانتهاء القيلولة ...ليبدأ الصياح والضرب بالعصا أو الرمي بالحجارة مع ما يرافق ذلك من شتائم نصفها موجه لأصحاب القطعان والنصف

الآخر كان من نصيبنا...نحن أيضا كنا نلعن الرعاة وأصحابهم ...لكن لعناتنا لا تفهم من قبل البشر...

أثناء الشوط الثاني من الرعي ، سقط نظري على نعجة شابة لم أرها من قبل...قدمت لها تحيتي, فردت بتحية جميلة حركت وجداني لأول مرة ...أثناء ردها اكتشفت بأن لكنتها مختلفة عنا تماما ..وعندما سألتها عن أصلها أخبرتني بأنها من بلاد بعيدة ...وبأن صاحبها السابق قد ربحها من مالكها الأصلي في جلسة قمار ، وبأن الشيخ قد تلقى عرضا فاشتراها وألحقها بقطيعه ، وبأنها لا زالت تعتبر نفسها غريبة لأنها لم تتأقلم بعد مع وضعها الجديد....تأثرت لحال هذه النعجة الحسناء ..وعندما كنت أفكر فيما يجب قوله أحسست بدفعة قوية من الخلف ...وبرأس ضخم يحول بيني وبين مخاطبتي ....لأكتشف بأن الفاعل ليس سوى كبش الشيخ الذم لم يتوقف يوما عن التغزل بأمي ..لكنها صدته انضباطا لقرار القطيع .

_سر مستقيما أيها الخروف! وتوقف عن مضايقة نعاج القطعان الأخرى!

_لم أعد خروفا يا شيخ القطعان! فأنا كبش مثلك...ولم أفعل شيئا يستوجب غضبك...لقد حاولت فقط التعرف على هذه الوافدة الحسناء على قطيعكم.

_ ومتى كان في قطيعكم كبش أيها الغبي! لا تقترب من نعجتي حتى لا أرسلك إلى أنياب الذئب وبطون البشر كما أرسلت زعيمكم السابق.

_ ابتعد عن صغيري أيها العجوز! قالت أمي بلهجة غاضبة.

ضحك الكبش من لهجة أمي التهديدية قبل أن يرد:

_ وما شأنك أنت أيتها النعجة الشمطاء؟ هذا الأمر يهم ذكور الضأن فقط.

_ لقد أصبحت شمطاء في نظرك اليوم فقط ...أما البارحة فقد كنت تستعطفني كالكلب.

صدرت عن الكلب لهثة استنكار لكنه لم يتكلم احتراما لأمي التي يعتبرها خالته من الرضاعة .... كما أن الكبش تجاهل كلام أمي ليستمر في خطابه:

_لن أسمح لصغار الأكباش أو كبار الخرفان بالاقتراب من نعاجي.

_لكنني لست نعجتك! قالت الوافدة الحسناء بلهجة لا تخلو من غرابة.

_أنا لا أخاطب النعاج! رد الكبش باستعلاء قبل أن يتوجه نحوي محاولا نطحي برأسه الضخم ...لست أتذكر ما وقع...لكن ما علق بذاكرتي أخبرني بأنني تجنبت رأسه بسرعة، وتوجهت بقرناي اللذان لا يزالان في طور النمو نحو أسفل بطنه .... فاذا به يهوي ...أمام ذهول الجميع.

_ سأربيك يا أيها الصعلوك! صاح الكبش وهو يحاول إخفاء ألمه بعد وقوفه، وشروعه في حفر التراب بقائميه الأماميتين استعدادا لهجوم رأيته صاعقا، وأمي المسكينة واقفة أمامه تحاول منعه بما توفر لديها.

_ ابتعدي أيتها الشمطاء! لم تعد لي حاجة عندك! وابنك ميت لا محالة.

_ حتى أموت أنا أيها الكبش المغرور بضخامته .... ناطحني أنا أولا!

شجاعة أمي أذهلت المتتبعين، ودفعت بي الى تجاوز رهبتي، بعد أن اكتشفت بأن ضعف مهاجمي يكمن في الأماكن الغير مغطاة بصوف.

_ أتركينا يا أمي فهذا شأن الذكور.

_ لكنك صغير بالنسبة لهذا الغول! أجابت امي باستغراب لا يخلو من فرح.

حاول الكبش الضخم الوقوف على قوائمه، لكنه لم يستطع ذلك سوى بمساعدة الشيخ وبعض الرعاة الذين سارعوا لتقديم يد المساعدة معتقدين بأن صاحبنا قد خطا خطوة خاطئة في أحراش مليئة بمفاجآت الطبيعة.

_ عليك ببيع هذا الكبش الذي زحفت عليه الشيخوخة أو ذبحه وإطعامنا من لحمه! قال أحد الرعاة ضاحكا.

_ لا حاجة لي ببيع أغنامي فهي عزيزة علي ...أما بالنسبة لإطعامكم، فسأكون سعيدا بفعل ذلك .... لكن ليس من لحم هذا ...فهذا هو رمز قطيعي، كما أن جل خرفانكم من نسله...

_ قريبا سيأخذ منه الزعامة أحد الاكباش الصاعدين .... فالزعامة عندهم للأقوى ميدانيا ...ولا حاجة لهم بالسياسة الآدمية.

_ لكنه ما زال قويا! قد تكون خطوة خاطئة.

_أثناء استماعنا الى الحوار الدائر بين الراعيان ...صاح تيس موجها كلامه للشيخ قصد ايصال المعنى للكبش الذي استعاد توازنه وشرع في الرعي:

_ لم تر بعد نطحات الشباب أيها الشيخ العجوز ...

_ وانت أيضا لك في ذمتي حصة تأديب أيها التيس الطبال! رد الكبش وهو يمشي متبخترا بعد أن استعاد ثقته في نفسه ...وقطيع الشيخ ينظر إليه باحترام ...وكأنه لم ينهزم.

_أتحداك في أي وقت تشاء أيها العجوز المصر على عجرفته رغم انتهاء صلاحيته. تعالت صيحات الاعجاب بين أفراد القطعان السائرة نحو حضائرها. منهم من صاح بان عهد الشباب قد حان، ومن من كان يؤكد لمن يريد الاستماع اليه بأن الكبش الضخم سيعيد الأمور الى نصابها ...أمي المسكينة فقط، كانت تظهر عليها علامات القلق وهي تسير وسط القطيع.

_ غدا نحسم الأمر! صاح الكبش وهو يقود قطيعه نحو حضيرة شيخه، والنعجة الحسناء بجانبي تحاول الالتصاق بي قصد مرافقتي إلى حظيرة الأقرع لولا عصا الراعي الصغير التي جعلتها تغير الاتجاه.

على باب الحظيرة وجدنا العنزة في انتظارنا لينصرف أخوها مسرعا نحو المنزل ...وبعد إدخالنا انصرفت لتتوجه حولي الأنظار ما بين مشفق ومتوجس ومتعاطف وشامت باستثناء أمي التي أجهشت بالبكاء:

_ يا ويحي ...! قالت أمي منتحبة .... نحن نعرف باننا خلقنا للذبح من قبل البشر او الخنق من طرف الذئاب ...لكن أن يقتل الكبش اخاه الكبش ...فهذا الأمر لا أتمنى أن أراه وانا على قيد الحياة ...وخصوصا إذا كان المقتول ابني!

_ ومن قال لك بأنني سأقتل يا اماه؟ أنا مستعد للقتال، والمقاتل سينتهي به الحال في وضعيتين لا ثالث لهما ...وضعية المنتصر التي ترفع إلى الأعلى، ووضعية المنهزم التي تقذف بصاحبها نحو الاسفل ...وبما أنني في الأسفل فإن القتال قد ينفعني ولكنه لن يضرني.

_أسكت أيها الشقي! ومن أين لك بقوة تجابه بها ذاك الذي أرسل عمك الى أنياب الذئب...؟ يا ليت الأقرع يأتي ليأخذني ...أنا راضية بالبيع أو بالذبح على رؤية ابني يقتل قبالتي من قبل واحد من جنسه.

_ اطمئني يا أمي .... فالموت بالقرون أرحم من الذبح بالسكين ...

أعرضت أمي عن قولي ثم انصرفت لترضع أخواي وهي تنوح عل ثكل منتظر بينما تحلق حولي ذكران القطيع، وتوجهوا إلي بنصائح شتى حول إدارة معركة الغد، وأنا أجاملهم وأشكرهم على نصائحهم، رغم أن العديد منهم كان ينظر إلي نظرة مودع... لست أدري كيف هجم النوم على جفوني ...لكن أمي وحدها لم تنم .... لقد وجدتها تلحس رأسي عندما استيقظت، وكأنني حمل حديث الولادة.... فدمعت عيناي من التأثر ...وقبلتها بعد أن قررت الانتصار أو الموت.

حضرت العنزة لمساعدة أخيها على إخراجنا، وفي الطريق لاحظت بأن كل أعضاء القطيع يفسحون لي ممرا مريحا أمشي فيه لوحدي.... وكلما وجهت بصري نحو أمي ...أجدها تحيطني بنظرات لا يمكن وصفها بالكلمات.

وصلنا إلى بداية المرعى فأحاطتني الأغنام بتعاطف كبير تجلى في التخلي عن الأعشاب الجيدة لفائدتي .... وفي مكان الرعي المشترك، وجدنا قطيع الشيخ مجتمعا ينتظر قدومنا.

_ أين ذاك الغلام الذي داعبني مساء الأمس بنطحة من رأسه الصغير؟ قال الكبش الضخم بكبرياء.

_ لا يوجد بين القطعان غلام سواك! رددت وأنا أنعزل عن قطيعي.

حاولت أمي عرقلة المبارزة من خلال الوقوف بيني وبين خصمي الذي غطاني ظله، لكن لجنة التحكيم المكونة من شيوخ قطعان أخرى، كانت حاسمة وأخرجتها من ساحة النزال.

_ الأمر متعلق بشرف قطيعين في منظومتنا الغنمية .... فالزمي حدودك أيتها النعجة! صرح رئيس لجنة التحكيم بحزم.

_ ومتى كان للأقرع شرف حتى ندافع عنه؟

_ الاقرع عديم الشرف بشهادة البشر والأنعام يا أمي! لكن قطيعه ليس كذلك ...فاتركيني أؤدب هذا الضخم المملوء بالغرور الفارغ...!

كلماتي زادت من غضب الغريم الواثق من نفسه، ولذلك انطلق نحوي كشهاب ناري وفي نيته حسم المعركة بضربة أو ضربتين...لكنها طالت واستطالت بعد تعرفي على نقطة ضعفه الأساسية التي لم تكن سوى الغرور .... أثناء القتال سمعت تشجيعا بلكنة مميزة، فزادت حماستي ورأيت النصر يقترب مع فقدان غريمي لأعصابه التي كانت سببا في بداية تراجعه، فعند كل هجوم من طرفه أتحاشى ضربة رأسه الصاعقة وأناوشه بضربات صغيرة على جوانبه وخصوصا تلك التي لا يوجد بها صوف يحميه ....

الشيخ الوقور كان يراقب المعركة من بعيد رفقة الصبي متحسبا للتدخل بسكينه لتحليلي في حالة ضربة مميتة تصيبني، لكن الأمر لم يكن كما تمناه.

_ أوقفوا هذا العبث أيها الرعاة! لا أريد مشاكل مع الأقرع في حالة إصابة خروفه بمكروه.

_ خروف الأقرع يقاتل بذكاء .... فاترك الأكباش تصفي حساباتها فيما بينها .... فأنني أشم رائحة الأنثى في هذه المناطحة.... علق الكهل الذي كان يتابع مراوغاتي ويضحك مستحسنا.

حاول الشيخ الوقوف فيما بيننا مستعملا عصاه، لكن إعراض الرعاة عن المساعدة لم يمكنه من النجاح في ذلك.... فلم يجد بدا من أخذ مكانه بين المتفرجين، وعلامات القلق تظهر على محياه الوقور لتسمر المعركة ...في كل مرة يخطئني الضخم...وأنا أنجح في إصابته...

انتصبت اذان الكلاب بشكل مفاجئ، وشرعوا في نباح قوي وعيونهم تنظر في اتجاه واحد.

_ اللعين في الجوار ...! صاح الكهل وهو يقف متحفزا .... هيا بنا إليه!

هرول الرعاة نحو المكان الذي أثار حالة الطوارئ في المرعى، لكن الإنذار كان خاطئا.... لقد مر الذئب في الجوار لكنه لم يتوقف .... لم يشاهده أحد من الحاضرين لكن الكلاب كانت متأهبة.

_ لقد رأيته يمر من هناك!... قال أحد الرعاة ...وأشار بأصبعه.

_ لم تر شيئا يا صديقي ...! رد الكهل بنبرة مستهزئة .... الكلاب اشتمت رائحته فأنذرتنا ...الذئب أذكى من الكلب والكلب أذكى منك ...فاربط لسانك يا فتى! هناك من يكذب من أجل نيل مصلحة ...وأنت تكذب ولا مصلحة لك في ذلك ....

أثناء حالة الطوارئ الخاطئة التي نشرت رعبا حقيقيا في صفوف القطعان، تبادلنا عدة نطحات خفيفة فيما بيننا وثقتي في نفسي تزداد. توقف خصمي ليسترجع أنفاسه، وأنا كذلك فعلت ...

_ ابتعد عني يا ابن النعجة العجوز .... ولنعقد اتفاقا بيننا!

_ لا تنس بأنك أنت الذي بدأت .... فأنت والد عدد من أبناء حظيرتي ...لكنك فرضت علي القتال.

_ فلنغلق الصفحة ولنفتح صفحة جديدة ...لا غالب ولا مغلوب!

_ فليكن ...! اتفقنا....

_ هيا! غادر الحلبة واتركني لأخبر القطعان باتفاقنا.

_ بل أنت من يجب عليك المغادرة بحكم أنك أنت المعتدي!

حاول الكبش نطحي ...لكنني تجنبت نطحته لأتبع ذلك بعدة نطحات خفيفة لكنها متتالية، وغريمي يخرج تدريجيا من الحلبة ...تصادف الشوط مع عودة المهتمين.

_ استراتيجية كبش الأقرع في النزال غلبت قوة كبش الشيخ واندفاعة قال راع.

_ قضاء الطلبة لبعض عطلتهم معنا لا يخلو من فائدة ...علق الكهل على كلام الراعي.

لم أدرك بأنني صرت زعيما إلا عندما ارتفعت الهتافات باسمي المقرون باسم والدتي عبر ثغاء متكرر لم يفهم البشر معناه.... أول من هنأني لم تكن سوى أمي التي خاطبتني باستعلاء خوله لها حق الأمومة السرمدي:

_ أبارك لك الزعامة أيها الشقي .... رغم أن والدك كان يمشي دائما في الطرف تجنبا للمشاكل....

_لا حاجة لي بالزعامة يا أمي! فكل الزعماء يباعون أو يذبحون قبل الآخرين.... حياة الزعماء غالبا ما تكون قصيرة مقارنة مع باقي أفراد القطيع.

_ لا يقاس عمر الزعماء بالمدد الزمنية التي يمضونها فوق الأرض، بل بفترات المجد التي يمرون منها أثناء تزعمهم.

_ لا حاجة لي بالمجد بعد وفاتي يا أمي ...فأنا خروف، وأريد أن أعيش كالخرفان ...

_خروف زعيم ...أفضل من خروف يصفق للزعيم .... مرحبا بالزعيم! قالت أمي مزغردة.

_ أعتقد بان هذا الأمر سابق لأوانه يا أمي! لقد عقدت اتفاقا مع الكبش الضخم.

_ ما كنت لتعقد معه أي اتفاق...! لقد انهزم وغادر الساحة تحت أنظار الجميع. والمنهزم في عالم الأكباش يرضخ ولا يناقش ...هكذا تقول القواعد .... قال صوت جميل.

انتبهت الى مصدر الصوت فاذا بالنعجة الحسناء تنظر الي وتبتسم .... والكبش الضخم يتظاهر بالانشغال بالرعي وهو ينظر إلينا خلسة ...وامي تضحك من السعادة وتباهي بشخصي قريناتها:

اذهب أيها الشقي الذي ظهر منه العجب...!

كان هذا آخر أمر سعيد تلقيته من أمي .... لقد نسيت نفسي وغيري وصرت ذاتا واحدة مع النعجة الغريبة التي أصبحت رسميا زوجتي قبالة الكبش الضخم الذي تضاءل حجمه في نظر كافة القطعان ...حتى أن الذين كانوا يهابونه سارعوا إلى استفزازه وشتمه ودعوته للمناطحة، لكنه أعرض عنهم وانزوى يبحث عن رزقه في الأطراف .... إلى أن ابتدأ صياح الرعاة مناديا بالاستعداد للرجوع ...في تلك اللحظة تطاير وهم الزعامة من رأسي لأكتشف بأنني خروف منتمي للقطيع .... فأوامر الرعاة لا يمكن عصيانها.

أحسست بألم الفراق وزوجتي تساق مع قطيعها...لأول مرة أحس بنشوة الحب، ولذلك قضيت السهرة في الحظيرة صامتا رغم أن كل النقاشات تدور حولي وحول بطولاتي التي لم أسمع عنها من قبل ...وعن مستقبل يمكنني من بسط نفوذي على باقي القطعان ....

_ رغم صغر سنه استطاع هذا الخروف أن يمرغ أنف الكبش الضخم في التراب.

_ لم يعد خروفا ...صاحت أمي بعتاب ...لقد أصبح كبشا كامل الأوصاف ...ألم تلاحظوا أن النعجة الغريبة لازمته طول النهار كظله؟ أما بالنسبة للحجم ...فإنه يشبه المرحوم أباه.

_لكن أباه كان أجربا ...وكان غير مرغوب به من قبل النعاج ...كما إنه لم يخض أية معركة حتى باعه الأقرع في الجوار...

توجهت نحو المتحدث عن أبي بسوء ...ونطحته بثقة المنتصر، فتولى وأدبر متقبلا نطحتي .... وانا اقول:

_من ذكر أبي بسوء فانه يدعوني للقتال ...ومن لم يعامل أمي باحترام ...فان مصيره النزال .... لتتدخل أمي موجهة كلامها للمنطوح:

_ الجرباء هي أمك أيها القذر! زوجي والد زعيمكم كان حكيما كابنه ...لم يبحث يوما عن نزال ...وابني لم يسع إلى زعامة ...لكن استفزاز الكبش الضخم دفعه لذلك .... فأريحونا من المنابزات من فضلكم ...كلنا في ملكية الأقرع، والأقرع في ملكية غيره ...عيشنا المشترك غالبا ما ينتهي بحبل حول العنق ...أو بسكين يمرر فوق الحنجرة ....

_ الكل يعرف بأنه سيموت .... وحتى الذين يتحكمون في رقابنا يدركون ذلك، لكنهم لا يفكرون في الموت إلا عند اقتراب أجلهم ...علينا أن نفعل مثلهم...نعيش حياتنا بحلوها ومرها...بسعادتها وشقائها ...بسلمها وحربها... ومن حان وقته فليذهب .... صاح أحد أخواي التوأمين ....

_أرحنا من كثرة الكلام أيها القطيع! لقد كان اليوم شاقا! .... قلت بحزم.

غاص المحتاجون للنوم في سبات عميق، بينما انخرط الذين هجم عليهم الارق في تأملاتهم الخاصة ...وأنا كنت من ضمنهم أفكر في وضعي الجديد الذي نتجت عنه أوضاع جديدة ...بالأمس كنت خروفا عاديا، ولو أنني طلبت منهم النوم لسخروا مني، ولرفعوا أصواتهم نكاية من طلبي، لكنهم اليوم امتثلوا للأمر ومنهم من كان ينوي إطالة سهرته ...انطلاقا من هذه اللحظة قررت الاحتفاظ بالزعامة والدفاع عنها ما استطعت إلى ذلك سبيلا ...اتخذت القرار وأنا أمنى نفسي برؤية زوجتي عندما تشرق الشمس.

كنت أول المستيقظين رغم أنني لم أنم سوى في الهزيع الأخير من الليل .... جاء الطفل الراعي وشرع في إخراجنا بعد اكتسابه لخبرة أغنته عن انتظار المساعدة من أخته... واثناء انشغاله فيما هو بصدده أطل علينا الأقرع صامتا كعادته، وبعد أن طاف بعينيه بين أفراد القطيع توجه نحو أمي وأمسكها من عنقها بيديه ليجرها إلى خارج الحظيرة وأخواي يتبعانها بسرعة.... المسكينة لم يخطر ببالها بأنها سترحل في اليوم الأول لتتويج ابنها كزعيم للقطيع .... لكن رؤيتها للدابة الحديدية رابضة قبالة الحظيرة، قطعت شكها باليقين فتأكدت من أنها راحلة ...فأطلقت ثغاء الوداع وأنا أسمعها ولا أراها .... رددت عليها بثغاء العاجز لكنني أعتقد بانها قد سمعت صيحتي رغم هدير محرك السيارة ... فبين الأم وابنها رابط يمكنهما من تحاوز الماديات.

انطلقنا نحو وجهتنا وأنا لم أستوعب بعد فراق أمي .... من مقدمة القطيع الذي أصبح حقا مكتسبا لم أتوقف عن الالتفات يمنة ويسارا ...وبين الفينة والأخرى كنت ألتفت للوراء لعلي أرى أمي وأخواي بجانبها ...لكن ذلك لم يحصل.

_ أمك لن تعود أيها الزعيم! خاطبني الكبش باحترام بعد أن أنزل ذنبه للأسفل.

_ ومن أخبرك بهذا أيها الكلب؟

_ موقعي ككلب يمكنني من معرفة كل ما يروج في بيت الأقرع.

_ وماذا يروج في بيت الأقرع؟

_ كلنا يعرف بأن صاحبنا قد اكترى ابنته للعمل كخادمة في بيت من بيوت المدينة، لكنها لم تتأقلم مع الوضع وفرت من بيت مشغليها، وبما أن الأقرع قد أخذ المال من مشغل ابنته فإنه مطالب برد الدراهم لأصحابها...

_ ولماذا فرت العنزة من مدينة يحلم كل البشر بالرحيل إليها ...هناك الماء يخرج من الحائط، والضوء ينبع من الشرائط ...والأكل يلقى في المزابل ...

_ هذا ما ترويه الألسن ...أما ما تشاهده الأعين فتلك قضية أخرى .... أحمال ثقيلة ...وأجور هزيلة ...ومآكل قليلة...وعيشة ذليلة ...لقد سمعت العنزة وهي تحكي لأمها عن عيشتها هناك ...الذئاب أرحم من بني البشر ...

_ تقلل من لؤم الذئب مقارنة بالبشر لأنه ابن عمك.

_أنا أعطيت عهدي للبشر رغم أنه لا يستحق، لكن الوفاء شيمتنا ...الذئب يخنق من هو في حاجة إليه ...أما البشر فإن الخنق عنده هواية .... والبشر ينفرد بآفة الاغتصاب التي تغيب من سلوكات كل الحيوانات ...لولا فطنة العنزة لكانت الآن ضحية في بيت والديها، ولأكلت سيرتها الألسن.

_ وما دخل أمي بمشاكل الاقرع والعنزة والحيزبون؟

_ أمك هي الحل أيها الزعيم! سيبيعها الأقرع لإبراء ذمته أما م مشغل العنزة التي ستستقر في منزل والديها إلى أن يطل عليها عريس.

_ أتمنى للعنزة عريسا مناسبا ...كما أتمنى عودة أمي.

_ كلنا نتمنى عودة أمك التي أعتبرها خالتي ...لكنها للأسف...لن تعود!

أمي التي كانت الى جانبي منذ أن وطئت قوائمي الأحراش...هي التي كانت تبذل مجهودات استثنائية حتى توفر لي من ضرعها حليبا أوصلني للزعامة...هي التي قفزت نحو الذئبة الشهباء وهي تعرف بأنها تلقي بنفسها إلى التهلكة.... هي الوديعة المسالمة التي كانت تستخدم راسا الصغير للتناطح من أجلي .... ومقابل ذلك لم أقدم لها شيئا يذكر سوى كثرة الطلبات ...وثغائي الذي كانت تعشقه.....لن تعود أمي! مستحيل!

_ابتلع ألمك يا زعيم وتسلح بالصبر حتى لا تبدو ضعيفا أمام القطيع في اليوم الأول لزعامتك...وقد يكون ذلك سببا في اهتزاز صورتك.

_ وهل ستحلو الزعامة من غير أمي؟

_تلك هي طبيعة الأشياء ...أمك ولدتك وأرضعتك حتى كبرت ...أما أنا...فقد رأيت أمي تدهس قبالة عيني من طرف دابة حديدية وأنا جرو صغير ...ولولا تلك التي تسمونها بالحيزبون ...لكنت الآن في عداد الموتى ...لقد أرضعتني من حليب نعاجها ...ولذلك يتساوى حبي لأمي مع حبي لها.

أعرضت عن الكلب الذي انهمك في تنظيم سير القطيع، واستمررت في السير إلى أن سمعت الراعي الصغير يصيح:

_توقف أيها الكبش المنحوس! هل تريد اللحاق بأمك التي أخذها الوالد للمدينة؟

خففت من سرعة المشي .... وألقيت على الخلاء الذي شهد ولادتي نظرة لعلني أرى طيف أمي .... لم أجده لكنني وجدت الكلب واقفا قبالتي مكشرا عن أنيابه ...لكنه خاطبني بلطف:

_ يا ابن الخالة لا تحرجني! من فضلك توقف واشرع في الرعي! أنا أيضا أحب أمك، لكنها لن تعود .... هذا يومك الأول فلا تبحث عن مشاكل جانبية معي... !نعم أنت زعيم القطيع ...لكنني رئيسك المباشر ... وقرابتك معي لن تنفع إذا غاب النظام داخل القطيع.

حدثتني نفسي الأمارة بالعنف بنطح هذا الكلب ...لكنني تذكرت احترامه لأمي، فشرعت في الرعي وأنا لا أدري ما أقضم، وأثناء ذلك اكتشفت بان القطيع يتخلى لي عن أعشاب جيدة في إطار المواساة والاحترام ...فلا يقترب منها حتى أغادرها.

_ أرى بان شهية الزعيم متفتحة على الرعي في هذا اليوم الجميل ...لكن العشب الشهي لا يحب أن ينسيه زوجته.

صوت زوجتي زاد من حزني الذي ظهرت ملامحه على خشمي ...وعندما أخبرت زوجتي بما وقع انفجرت باكية ...وانقلب المرعى الى ساحة لتقبل التعازي التي خففت عني بعض الألم .... نظرت إلي زوجتي بعطف ثم قالت:

_ لا يمكن للقصص الجميلة أن تنتهي كما يريد لها أصحابها أن تكون. فتلك الحكايات موجودة فقط في صناديق الفرجة التي يطلق البشر عليها لقب التلفزة .... العشب عندما ينمو يرعى أو يجف...والشياه عندما تكبر تذبح أو تباع ...والبشر حينما يرى السعادة تقترب منه يمرض أو يموت .... لكن هذا الأخير يريد إشراك الجميع في تقاسم فرحه أو حزنه ...الإنسان لا يكره أن تزغرد النعجة عندما يذبحها ...وتلك والله قمة الأنانية.

_لقد أصبحت فيلسوفة أيتها النعجة الحسناء...! نطق كبش على أبواب الكهولة بعد اقترابه منا .... ونحن منخرطون في عالمنا السحري الخاص.

_ وأنت مشروع شهيد أيها الكبش الذي عاش أكثر مما ينبغي! أجبت نيابة عن زوجتي ...ابتعد واحتفظ بإطرائك لنفسك ...أو اذهب ووزعه على من هن في سنك من نعاج المرعى .... أيها المتصابي!

_لم أقل شيئا يستوجب غضبك أيها الزعيم ! لقد أردت المدح فقط.

_ المدح يكون للزعيم .....وليس لزوجته، فابتعد قبل أن أطلب من القطعان إفراغ ساحة النزال ...واختيار لجنة تحكيم ...

نظر الي الكبش بغرابة ثم انصرف إلى رعيه، وزوجتي تنظر إلي بإعجاب.

_ هل تغار علي يا صديقي؟

_ كل المخلوقات تغار على من تحب ...وأنا متأكد بأن هذا الكهل قد غازلك قبل أن أتعرف عليك ...ولو كرر الإطراء مرة أخرى، فإنه حتما سيكون من المقتولين.

_ لقد أثنى فقط على تفكيري وطريقة تحليلي للأمور ....

_دائما ينطلقون هكذا ...للوصول الى أهدافهم .... سأ....

قبل أن أكمل كلامي الرامي إلى استعراض مهاراتي الفكرية، ارتفع نباح الكلاب وانتصبت أذانهم وهم ينطلقون نحو الغابة والرعاة يتبعونهم ...وفي منحدر لم يتمكن الجميع من مشاهدة ما يدور فيه نشبت معركة بين الذئب والكلاب ارتفع فيها العواء بالنباح والشتائم بعبارات التجريح ...وانتهت بمغادرة الذئب وعودة الكلاب سالمة باستثناء كلب قطيعي الذي ظهر متأخرا وهو يعرج ودم يظهر على كتفه.

_ لقد تمكن منك الذئب يا كلب الأقرع.

_ ابن الكلب كان قاسيا في عضته وبذيئا في شتائمه.

_إذا كان هو ابن الكلب ...فمن تكون أنت؟

_ بحكم اندماجنا في محيط البشر أصبحنا نستعير منهم مصطلحاتهم.

_ لماذا يهجم الذئب على القطعان؟ قالت زوجتي التي شاهدت ما وقع في المنحدر بحكم خفتها.

_ الجوع كافر يدفع صاحبه لارتكاب الحماقات، أما الثأر ممن قتل الزوجة والأبناء فيبقى دينا وجب رده...! لخصت لزوجتي بعجالة ما تعرضت له الذئب وجراءها فتأثرت ...

_ وهل تستطيع أنت الانتقام من أجلي ...؟

_إن كان من فصيلتنا أفتك به فتكا أو أموت دون ذلك، أما إن كان ممن يتحكمون في رقابنا فإن الأمر يتجاوزني وتلك قضية أخرى ...لو أن كبشا حاول الاقتراب من أمي من غير رغبتها ...لقاتلته حتى أسقطه أرضا ...أو أسقط أنا ...لكنني رأيت الأقرع يجر أمي ...ولم أستطع فعل شيء سوى الثغاء.

_ الكل يتحدث عن أمك بخير ...

_ أمي كانت نعجة استثنائية ...رغم أن عيوب الماشية تتلاشى بعد ذبحها أو بيعها.... دعينا من هذا الأمر وتعالي لترعي بجانبي ...

اكتشفت بأن الوقت يمر بسرعة عندما تكون زوجتي بجانبي، وعرفت بأنها ستغادرني بعد قليل ...لكنني كنت متأكدا بأنني سأراها في اليوم الموالي.... وهذا ما خفف من حدة التوتر التي سيطرت علي ....

عند اقتراب الشمس من المغيب ، وأثناء مناداة الشيخ على قطيعه ، توقف صوته ورأيناه يسقط على الأرض ليتناوب الكبار على حمله ، بينما تكفل الصغار بإعادة القطعان مجتمعة إلى المدشر ....خلال مساعدة العنزة لأخيها على إدخالنا بعد فصلنا عن بعضنا ...وأثناء ابتعاد زوجتي مع قطيعها الأصلي رأيت الكهل الذي أطرى عليها أمامي يتقرب منها وهي تسير الى جانب النعاج ...فقررت منازلته غدا صباحا حتى يعرف بأن زوجة الزعيم يجب أن تحترم ....حتى وإن كان زوجها غائبا ...وبينما كنا نسترد أنفاسنا من الجو الخانق ووعثاء الطريق التي قطعناها من الأحراش ...أطل علينا الكلب من السياج وقال لاهثا :

_ لقد مات الشيخ ...!

_ ومن أخبرك بهذا؟

_لقد سمعتهم يبكون في منزله...وكل سكان المدشر يتوجهون مسرعين إلى هناك.

_ هل سيذبحونه ...ويفرقون لحمه فيما بينهم؟ كما يفعلون بلحومنا ...صاح جدي صغير السن.

ساد جو من المرح بين أفراد القطيع لينطلق النقاش حول الحدث.

_ هم لا يأكلون لحوم بعضهم .... رغم أنها تتشابه مع لحومنا.

_ لكنني سمعتهم أكثر من مرة يقولون بأن فلان يأكل لحم فلان أو فلانة.

_ الأكل فيما بينهم أكل مجازي .... هم لا يمضغون لحوم أمثالهم ولا يبلعونها ...لكنهم يأكلونها بشكل مختلف.

_ وماذا سيفعلون بلحم الشيخ؟

_ سيضعونه تحت التراب في مكان يسمى بالمقبرة.

_ ولماذا لا توجد مقابر لنا نحن معشر الخرفان والجديان.

_ مقابرنا الحقيقية توجد في بطون البشر.

_ وما مصير قطيع الشيخ؟ سألت بلهجة عادية في محاولة مني لإخفاء قلقي على مصير زوجتي.

_ ليس للشيخ أبناء رعاة، فكلهم غادروا المدشر بعد إصرار والدهم على البقاء، لقد وفروا له ما يلزم من ضروريات العيش الرغيد ...ثم انصرفوا إلى اشغالهم في المدينة.

_ قد يبيع الورثة القطيع بأكمله، وقد يسلمونه لأحد الأقارب بعد الاتفاق على تفاصيل الاستغلال.

_ ومن هم الورثة؟ سأل الجدي الفضولي.

_ عندما يموت البشر، ينتقل كل ما خلف وراءه إلى أقاربه وأهله، وفق قانون يختلف من طائفة لأخرى ...ونحن من موروثات البشر.

_إذن نحن مشاريع موروثات للأقرع...من سيرثنا بعد وفاته؟

_زوجته وأبناؤه.

_ ولماذا لا نرثه نحن؟

_ نحن مملوكون للغير .... والمملوك يورث ولا يرث....

نام الجميع، وبقيت مستيقظا تسيطر علي هواجس حول مصير زوجتي .... من سيرثها بعد الشيخ؟ وهل سيحتفظ بها الوارث أم سيبيعها في مكان لا أستطيع لقاءها فيه؟ ورثة الشيخ هاجروا المدشر وسيسعون إلى التخلص من إرث أبيهم في أقرب الآجال .... إذا ما اشتراها أحد سكان المدشر فإن لقائي بها وارد حتما.... وإذا ما بيعت خارج الديار فتلك هي المصيبة ....

_ هل تفكر فيها؟ قال خروف يصغرني ببضعة أسابيع وكان يعتبرني من أصدقائه...

وبما أن سؤال صديقي لا يخلو من مكر ...فقد وجدت نفسي مضطرا لنطحه لأن الأحوال الشخصية للزعماء لا تجوز مناقشتها مع الدهماء...انصرف صديقي وفي عينيه نظرة عتاب مؤلمة .... تأسفت لحاله ...لكن ضرورة الزعامة تقتضي ذلك.

في اليوم الموالي غاب قطيع الشيخ برمته وغاب معه تركيزي حول الرعي وما يصاحبه من تدبير أحوال القطيع الذي انتظر تعليمات مني، لكنني أعرضت عنه .... لكن ابن خالتي من الرضاعة قام بالواجب في توجيه القطيع والسهر على انضباطه .... أتناء شرودي الذي طال، وعيناي لا تفارقان المسلك المؤدي للمرعى أيقظني الكلب بلهثة فيها كثير من الاحترام.

_لن يأتي قطيع الشيخ هذا اليوم ...! فكما ترى يا ابن الخالة كل كبار الرعاة غائبون من أجل دفن الشيخ .... وفي المساء سيقرر الأحياء في مصير قطيع الميت.

_ وما أدراك بهذا؟

لقد حضرت في مناسبات مماثلة يا ابن الخالة.

_ اسمع أيها الكلب! عليك أن تعرف بأنك كلب وأنا كبش زعيم .... فلا تكثر من مناداتي بابن الخالة أمام القطيع .... وسأسمح لك بذلك أثناء نقاشاتنا الثنائية حول ما يتعلق بأمور ضبط القطيع ورصد تحركات الحساد والمشاغبين ...

أحسست بأن الكلب يكظم غيضه من كلامي ...لكنني تجاهلت احساسه وكنت مستعدا لنطحه حتى يعرف حدوده أثناء مخاطبة الزعيم ... ارتفاع نباح الكلاب أوقف حوارنا ...توجه الكلب مسرعا نحو رفاقه ، فوجدت نفسي أتبعه مسرعا لأرى الذئب المنفرد للمرة الثانية ....هذه المرة تفحصته جيدا و لمست قرابته السلالية مع الكلاب الذين كانوا يحيطون بابن عمهم من كل جانب ...الكل يكشر عن أنيابه ...والرعاة متهيبون من المشاركة في الهجوم على الذئب في غياب الكهل الذي تخلف من أجل دفن زميله الشيخ ...في لحظة ما ...التقت عيناي بعيني الذئب الذي خيل لي بانه يبتسم لرؤيتي ...وفجأة توجه نحوي ، لكن حاجز الكلاب حال بينه وبين ذلك ...عوض الفرار كما يفعل الأكباش ...تراجعت الى الوراء وأحنيت رأسي وشرعت في فرك الأرض بقائمتي الأماميتين استعدادا لنطحه .....أمام ذهول الرعاة والكلاب ....فر الذئب بسرعة وتوارى بين الاحراش .

_يا له من كبش شجاع!

_ هذه ليست شجاعة! هذا انتحار .....

أعرضت عن أحاديث الرعاة التي استمرت بعد تواري الذئب .... وتوجهت نحو المكان الذي كنت أرعى فيه ...وفي الطريق ارتفعت هتافات الأغنام:

_ عاش الزعيم .... عاش الزعيم.... عاش الزعيم ...

لم أنتبه لهتافات الإطراء ...لأن عيناي كانتا مصوبتين نحو المسلك المترب الذي زينته قوائم الأنعام .... وحال نفسي يتمنى لو أنها كانت هنا لتكون شاهدة على شجاعتي، ولتعرف بأنني أستحق فعلا أن أكون ابنها.

حاولت بعض النعاج التقرب مني، لكنني صددتهن بلطف صامت متقمصا دور الغبي الذي لا يفهم لغة الإشارات.

_ماذا يحسب نفسه؟ نتودد اليه ويصدنا! قبل تزعمه لم تكن الجرباوات ليرضين به.

_علاقته بالحياة حديثة...بالأمس فقد أمه ...واليوم تغيب عنه زوجته...إنه يعيش الصدمة الثنائية ...قريبا سينسى أمر هذه الغريبة التي أخذته منا ...وسيجري وراءنا متوددا.

_ الزعماء لا يتوددون لحسناوات قطعانهم ...هم يأخذون ما يريدون عن طيب خاطر...أو بواسطة الابتزاز.

_ كل الأشياء يمكن أخذها بالقوة .... سوى قلب الأنثى.

ابتعدت عن نعاج قطيعي حتى لا أحرجهن بالاستماع إلى حديثهن ...إلى أن حان وقت العودة فرجعنا وأنا أتمالك نفسي حتى أحافظ على مظهري كزعيم ...وعند باب الحظيرة وجدنا الأقرع ينتظرنا.... أخذ منا تيسا ثم انصرف ....

_ ليس من عادة الأقرع أخذ أحدنا في هذا الوقت ...فماذا سيفعل برفيقنا؟

_ إذا لم يذبح .... وهذا امر مستبعد...فسنجده غدا ضمن قطيع آخر.

كنا نستعد للنوم عندما أطل علينا الكلب وأخبرنا بأن أبناء الشيخ في ضيافة الأقرع، وبأن التيس قد ذبح على شرفهم .... وبأن المفاوضات جارية على قدم وساق من أجل إلحاق قطيع الهالك بحضيرة الأقرع .... فخفق قلبي بسرعة ...لكنني تجاهلت الخبر الجميل وتوجهت نحو الكلب سائلا:

_ هل تعشى ضيوف سيدك الأقرع؟

_ نعم يا ابن الخالة! ضيوف سيدي وسيدك.

_ وهل أطعموك مما فضل لديهم؟

_ نعم تسابقت مع القطط حول بقايا صديقي التيس الذي كان يمازحني طوال هذا اليوم.

_ تعال إلي يا ابن الخالة .... فإن لدي أمرا لك!

تكلم من هناك أيها الزعيم! فأذناي تشتغلان بشكل جيد.

قلت لك بأن الأمر بيني وبينك .... فأقبل!

ما أن أصبح الكلب في متناول رأسي حتى عاجلته بطحة جعلته يتلوى من الألم .... وعندما حاول مهاجمتي أضفت له أخرى ...ليغادر الكلب الحظيرة عاويا كالذئب

_سوف تدفع ثمن عدوانك أيها الزعيم الوهمي! قريبا ستذبح، وسأكون سعيدا بالتهام ما تبقى منك.

_ النطحة الأولى كانت ثمن ما التهمت من تيس لم يسع يوما الى إذايتك .... أما النطحة الثانية فهي بسبب مناداتك لي بابن الخالة .... ولكل فعل شنيع منك عقاب .... أنا كبش والذبح مصيري .... أما أنت فكلب ومخبر.... لو ان البشر يفهمون كلامك لأخبرتهم بكل أحاديثنا.

_ سأقوم بواجبي في حراستكم تنفيذا لأوامر أصحابي البشر ...وسأضبطكم ضبطا شديدا تحت طائلة العض ...ومن الآن فصاعدا .... لا أخبار لكم عندي.

_ بل ستقدم لنا تقارير منتظمة بكل ما يحدث في دار الأقرع!

_ وإذا لم أفعل؟

_سندفع كل يوم بحمل او بجدي نحو أنياب الذئب المنفرد ...وستتحمل المسؤولية لوحدك.... فاختر ما بين التعاون معنا أو غضب صاحبك الأقرع الذي لن يتوانى عن التنكيل بك، لا يوجد لدينا ما نخسره.....وللكلب واسع النظر.

غاب الكلب عنا بعد أن عرف ما ينتظره مني كزعيم .... وعقابي له لاقى استحسانا من كل أفراد القطيع.

_ لم يسبق لأي زعيم أن عاقب كلبا على التهامه للحومنا، رغم أن هذا الأمر كان عاديا فيما سبق ...

_ لكل جريمة عقاب ...ولكل عمل جزاء ...صحت بكلام مسموع أثرت عليه أصوات محرك سيارة تغادر جوار منزل الأقرع ...وتزامن ذلك مع عواء الكلب.

_ شخص ما ضرب الكلب بدون سبب ...!

_ لن يكون سوى الأقرع الذي يمازح كلبه الوفي بالضرب. ويتحاور معنا بالذبح أو البيع.

نام القطيع وغلبني النوم بعد أن أرهقني التفكير في زوجتي ومصيرها المجهول ، وأثناء نومي زارتني أمي ضاحكة مستبشرة وأخبرتني بأنها تسكن في حضيرة بعيدة كل البعد عن الأقرع والذئب ، وبأنها قد تزوجت من كبش قوي يفضلها على باقي النعاج رغم تقدمها في السن ...وبأن أحد أخواي قد بيع وذبح بنما لازال الآخر بجانبها ... وعندما أخبرتها بما وقع لزوجتي ، بشرتني بان لقائي بها قريب ، لكنها أوصتني بأخذ الحيطة والحذر منها لأن غضب الجميلات فتاك كالذئب....وقبل تواريها في سراب غير واضح أخبرتني بحبها لي وقلقها على مستقبلي ....وجددت تحذيرها لي من غضب الحسناء لأجد نفسي مستيقظا قبل ذهاب الليل ....حاولت النوم لعلي أرى زوجتي كما رأيت أمي...لكن ذلك لم يحدث.

صرير الحاجز الذي يقوم مقام الباب كان وراءه مفاجأة .... العنزة أطلت علينا في ثياب العمل بعينيها الناعستين وخاطبتنا ضاحكة:

_ أيها الأشقياء ...كتب عليكم الرعي والذبح أو البيع .... وكتبت علي حراستكم بمساعدة كلب أصبح عاجزا عن حراسة نفسه .... هيا اخرجوا للقاء قطيع وافد على حضيرتكم ...لقد أصبحتم قطيعا واحدا...!

عند خروجنا وجدنا قطيع الشيخ وكلبه الضخم في انتظارنا.... الأقرع واقف يراقب الأمور ...والحيزبون الى جانبه ...وكلاهما متحفز للتدخل قصد فرض النظام الذي قد يختل عند التحام القطيعين ....

فرحتي لا يمكن وصفها بالكتابة أو بالكلمات وأنا أرى زوجتي تنظر إلي وتبتسم من خلال عينيها الجميلتين ...قفزنا نحو بعضنا في تحد سافر لنظرات الأقرع وزوجته .... لكن العنزة التي أدركت ما دار بيننا رغم أنها لم تكن حاضرة في بداية علاقتنا قالت ضاحكة:

_ يا لك من شقي! لقد أحسنت الاختيار.

في طريقنا نحو المرعى أخبرنا الكلب بأن أبناء الشيخ قد أسندوا حراسة قطيع والدهم إلى الأقرع حسب شروط محددة بحكم قرابتهم من زوجته، وبأن الطفل قد عاد إلى المدرسة بعد التزام العنزة بحراسة القطيعين دون الاختلاط بالذكور من الرعاة.

أثناء سيرنا نحو أماكن الرعي كقطيع موحد، لاحظت بان الجميع يتباطأ بعض الشيء حتى أتمكن من السير في مقدمة القطيع، وبجانبي زوجتي، فاعتبرت بأن في الأمر إجماع على تثبيتي كزعيم على القطيعين معا، لتزداد ثقتي في نفسي أنا الذي كنت أنوي بسط نفوذي بقروني إذا ما دعت الضرورة لذلك.

_ أين الكبش الضخم؟ .... سألت رغم أنني عرفت الإجابة بالحدس.

_ لقد ذبحوه لإطعام الذين ساهموا في دفن الشيخ ...كما ذبحوا عددا من الخرفان والجديان.

_ فليرحمهم الله! كلنا مهيؤون للذبح إلا من لم تستسغه نفس البشر.

_ لقد كان كبشا جديرا بالاحترام رغم نظراته الزائغة ...قالت زوجتي.

_لن ينظر إليك أي كبش بغير نظرات الاحترام .... ومن فعل غير ذلك فله مني قتال لن ينتهي سوى بالموت.

_ أنا سعيدة بلقائك....

قبل أن أرد على جملة الغزل التي رفعتني الى سماء الهوى ...صاحت العنزة الآدمية بغضب:

_ أسرع أيها الكبش العاشق نحو المرعى! لقد تأخرتم ولن تجدوا سوى ما عافته الأغنام الأخرى.... الأعشاب الندية لا تنتظر العشاق ...ولا عشق مع الجوع! هيا ...أسرعوا! قالت وهي تهش بقصبة طويلة بيدها.

_ما ألطف هذه العنزة الادمية! قالت زوجتي ...أتمنى لها تيسا ألطف منها ويشبهك!

انشرحت لهذا الاطراء الأنثوي الذي يجعل الذكران يحلقون فوق السحاب قبل أن أجيب:

_ البشر ليسوا مثلنا أيتها الحسناء! تزويج العنزة يعود فيه الحسم للأقرع أولا، وللحيزبون ثانيا.

_ أعتقد بأن العنزة تستطيع الدفاع عن نفسها.

_ نادرات هن إناث البشر اللواتي يستطعن الدفاع عن حقوقهن في اختيار شركاء حياتهن .... وخصوصا في المداشر البئيسة.

_ لقد سمعت زوجة الشيخ تحكي عن معاناة بنات المدشر اللواتي يتم تشغيلهن في المدينة، كما حصل مع راعيتنا .... فبكيت كما بكت السيدة الفاضلة.

_ وأين هي زوجة الشيخ الآن؟

_ ماتت قبله ...وسمعت بأن الشيخ قد أوصى بدفنه بالقرب منها.

_أتمنى أن أموت قبلك حتى تستطيعين العودة الى أهلك دون أن أحزن.

_ وأنا كذلك أتمنى أن أموت قبلك حتى لا أراك تلاحق نعاج أخريات.

_ ومن أخبرك بأنني أنوي فعل هذا؟

_ كل الأكباش يفعلون ذلك ....

_ إلا أنا ...أفضل سكينا على عنقي عوض فعل ذلك ...

نهرتنا العنزة قبيل وصولنا الى وجهتنا، انشرح الجل لرؤيتها، وتذكر البعض سلاطة لسانها...لكنها أعرضت عن الجميع، وانزوت في مكان منعزل تراقب القطيعين اللذين أصبحا قطيعا واحدا.

كان هذا اليوم من أسعد أيام حياتي، أكلت قليلا واستمتعت برفقة زوجتي كثيرا ...وفي كل مرة أتصرف أمامها كزعيم ينهى ويأمر ...يمنح ويمنع .... وهي تراقب ولا تقول شيئا ...من نظر اليها متوددا تصيبني الغيرة فأنطحه ...ومن تعامل معها بلا مبالاة أذكره بأنها زوجة الزعيم، ولا أتردد في نطحه أيضا ....

_ لو كانت أمه هنا لما تركته يتمادى في المباهاة بزعامته التي لن تمنع عنه الذبح أو البيع حسب احتياجات الأقرع ...علقت نعجة كانت صديقة لأمي.

_ إنه فرح بمسؤوليته وبزوجته .... وإذا لم يتعقل ...فإن الزعامة ستغادره في أقرب الآجال.

ضاق القطيع الموحد ذرعا بتصرفاتي، فابتعد جل أفراده عنا .... وأثناء الرعي سمعت عبارات تهكمية من عدد من الإناث .... فار دمي وفركت الارض متحفزا لنطح نعجة قالت في زوجتي كلاما لا يليق .... لكن هذه الاخيرة أوقفتني قبل الانطلاق:

_ لا يجوز ضرب الأنثى فإن في ذلك فقدان للمروءة وسينقلب الجميع ضدك.

_ هل سمعت ما فاهت به في حقك؟

_ لم تقل شيئا يستوجب القتال ...فكلنا نعاج وخرفان في ملكية الأقرع.

_ لكن زوجة الزعيم يحب أن تكون لها مكانة خاصة في القطيع ...والجميع مطالب بتقديرها.

_ لم تعد الأغنام كما كانت تتغنى بأفضال الزعيم ومحاسن زوجته. القطيع يلزمه الترويض على حب الزعيم لأن القوة لم تعد تنفع .... فلو اتحد الجميع ضدك ...لفقدت زعامتك، ولفقدتني أنا أيضا .... تريث قليلا ...! ضياعك سيؤدي حتما إلى ضياعي لأن مصيرنا مشترك .... تظاهر بالتواضع، ولا تقطع حبل التواصل مع أصدقاء الأمس .... ومرغ كرامة الذين كانوا يحتقرونك في التراب .... فإنهم لن يرتاح لهم بال حتى تعود إلى ما كنت عليه قبل الزعامة .... وغالبا أقل من ذلك.

_ وما العمل إذن؟

_ احتفظ بغرورك لنفسك ...لأن إظهاره يعني بداية السقوط .... حاول استمالة المحايدين الأذكياء إلى جانبك، ولا تنس العنصر الأنثوي! فالبناء يجب أن يكون متساويا.

_ البناء؟ بناء ماذا؟

بناء مؤسسة الحظيرة حتى تستمر في زعامتك.

ابتعدت عني زوجتي برشاقة، وتوجهت نحو نعاج قطيعها الأصلي، ومن مكاني سمعتها تتقبل التهانئ منهن وترد على معاكساتهن الحميمية بمرح ينشر السرور بينهن ...اكتشفت بأن زوجتي داهية من الدواهي، فشعرت بالخجل من تصرفاتي العدوانية تجاه رفاق الأمس .... الزعامة تبنى ... وإذا لم تبن على أسس متينة فإنها ستتهاوى فوق رأسك يا أيها الخروف الأجلف! يا ابن النعجة الهرمة! خاطبت نفسي وأنا ابتعد عن القطيع. ليلتحق بي كبش من نفس جيلي.

_ كيف حال الزعيم؟

_ كما ترى أيها الصديق .... الزعيم فرد من أفراد القطيع ...يسري عليه قانون البشر.

_ لكن للزعيم امتيازاته ....

_واهم من يعتقد بأن للأكباش امتيازات ...كل من سمن يذبح ...وعند الحاجة يباع.... وكثيرة هي المناسبات التي تدفع الإنسان لذبحنا أو لبيعنا .... وفي انتظار البيع أو الذبح نحن مطالبون بتنظيم أنفسنا ...

_ وما فائدة التنظيم؟ ما دام القدر المحتوم واضح للجميع؟

_ تسهيل الحياة في انتظار الموت .... كنت أتكلم بصوت مرتفع محاولا إيصال صوتي لباقي أفرد القطيع .... وكذلك كان.

_لكنك اعتديت على الكبش الفلاني لأنه أطرى على زوجتك كما يفعل المتحضرون من الأكباش .... إضافة الى ترفعك عن الرد على تهاني عدد من النعاج باركن لك عودة نعجتك إليك ....

_ لقد تذكرت أمي فغلبني الألم ....

انقلب العتاب إلى تعاطف عند ذكري لأمي...الإناث ينظرن الي بعطف، والصغار يتطلعون إلي بفضول مقرون بإعجاب، والكبار صامتون .... لكن هاتفا في داخلي وخزني بمخيط حاد وخاطبني قائلا: تبا لك تبا! تتاجر بذكرى أمك من أجل بناء زعامة وهمية .... أعرضت عن الوخز والواخز وأنا أرى زوجتي تتنقل بين صاحباتها وتتعرف على نعاج قطيع الأقرع وتنسج العلاقات بسلاسة ...ولم ينقذني من عذاب الوخز سوى مجاملة موجهة إلي هذه المرة:

_ لقد أحسنت الاختيار أيها الزعيم.... فزوجتك جميلة حقا!

_هذا من لطفك فقط أيها الصديق ...هي التي اختارتني ، ولا مسؤولية لي في ذلك ...هي نعجة كباقي النعاج تأكل الكلأ وقد تلد خرفانا يكونون سببا في بيعها ، نحن نقتنص لحظات الحياة ولا حق لنا في حب دائم لأن مصائرنا في أيادي البشر.

أثناء كلامي لاحظت بان الكلب يتابعني باهتمام شديد، وكذلك الشأن بالنسبة لكلب الشيخ بجثته الضخمة وفروه الأبيض.... فخاطبتهما قائلا:

_ مرحبا أيها الكلبان! ثم توجهت نحو الكلب الملحق متوددا:

_أين كنت يا صديقي؟ لم نرك منذ الصباح.

_لقد زرت صاحبي في مرقده الجديد...ناديته كثيرا لكنه لا يجيب ...أعتقد بان طبقة التراب السميكة التي تفصل بيننا حالت دون سماعه لصوتي.

_إنه ميت يا صديقي ...وللأموات عالم خاص.

_ يا ليتني مت معه حتى أصطحبه لعالمه.

_ لا يوجد في الجنة كلاب .... قال كلب من القطيع المندمج.

_ ومن أخبرك بهذا؟

_ لقد سمعت الشيخ ذات مرة.

_ وهل يوجد خرفان وجديان في الجنة؟

_ أينما وجد البشر توجد الخرفان والجديان، لأنهم مصدر سعادتهم.

_ وهل سبق للشيخ أن مات قبل ميتته الأخيرة؟

_ الشيخ كان ملازما للعلماء ....

_ من هم العلماء يا صاحبي؟

_أنهم أناس يعرفون أكثر من الآخرين ...ينفعون الناس بعلمهم وينتفعون من أموال الناس ...

_ وهل صاحبنا الأقرع يلازم العلماء أيضا؟ سأل جدي صغير.

_ للأقرع أيضا علماء يلازمهم .... هم ينفعونه بما يرضيه وهو ينفعهم بأثماننا التي يقبضها في الأسواق

ساد جو من المرح وبدأت غيوم التوتر تنقشع بيني وبين القطيع الذي يبحث فقط عمن يتواصل معه.

_أريد أن أصبح عالما عندما أكبر .... صاح الجدي الصغير ...فالعالم أفضل من الزعيم ....

_ العالم والزعيم في عالم الخرفان يتساويان أمام ديمقراطية السكين ....

اندهش الذين يتتبعون حواري مع الخروف من أسلوب خطابي تجاه الجدي الصغير.

_ خطابك العدواني يغيب أمام الصغار أيها الزعيم ...

_ لم أكن في يوم من الأيام عدوانيا .... أنا منكم ...في هذا الخلاء ولدت، ومنه حملتني العنزة الآدمية التي أعتبرها اختي الكبرى إلى حضيرة البؤس ...وهناك تعرضت لشتائم الحيزبون التي تشتم كل وافد على الحظيرة لأن في ذلك شقاء إضافي لها.... واستعمال القوة بين الفينة والاخرى يبقى ضروريا لضبط الأمور .... الزعامة زائلة، لكن الكبشنة باقية .... وهي التي ترافقنا من يوم الولادة إلى تاريخ الذبح.

مارسنا حقنا في الرعي وفي الحياة تحت إشراف العنزة التي ابتعدت عن مجموعة الرعاة، واتخذت لنفسها مكانا يمكنها من متابعة حركية القطيع الذي تضاعف عدده .... وعند اقتراب منتصف النهار شرعنا في النزول نحو نقطة الماء الصامدة أمام الجفاف.... وأثناء ذلك رأينا الكلب الأبيض يغادرنا نحو المدشر.

_ إلى أين تذهب أيها الكلب؟ عد الى القطيع! ... لكنه لم يمتثل لأمر صاحبته الجديدة.

اقترب مني الكلب وأخبرني بأنه ذاهب إلى المقبرة للاطمئنان على صاحبه.

_ وكيف يمكنه فعل ذلك؟ وبينهما تل من التراب.

_إنه يحرس الجزء الظاهر من القبر .... ولا يدع مخلوقا يقترب منه.

_ وفاؤكم غريب أيها الكلاب! قلت وأنا أفسح الطريق لزوجتي لتمر من مسلك وعر.

_ وهذا ما تفتقدونه يا زعيم.

_ لقد فرض علينا الوفاء لسكاكين الجزارين ...ومعاملات الأسواق .... اذهب نحو العنزة فقط تعطيك شيئا من طعامها.

_ العنزة تتقاسم معكم عددا من الصفات.

_ لو أنها أدركت بانك تشبهها بنا ...لأشبعتك ضربا، ولطردتك من الحظيرة ....

_ وهل يوجد في حضيرة الأقرع شيء يستحق الطرد من أجله؟

قبل أن أرد سمعت العنزة تنادي على الكلب من أجل منحه بعض طعامها:

_ تعال لتأكل أيها الكلب! فدار صاحبك قد أصبحت فارغة ولم يعد بها شيء من الخيرات التي تعودت عليها.

_ إنه ذاهب إلى قبر صاحبه يا أيتها العنزة! صاح الجدي الفضولي.

نظرت العنزة إلى الجدي الصغير باهتمام، كأنها فهمت ما قال ...لكنها أشاحت بوجهها عنه وقامت متأهبة لصد راع يقترب منها .... بعد أخذ ورد وكلام ناب، والانحناء على الأرض قصد البحث عن الأحجار التي تعتبر من وسائل الدفاع عن النفس، تراجع الراعي مدحورا من صلابة العنزة التي أتبعت ذهابه بشتائم تكفي كل قطعان العالم إلى أن توارى من محيط رؤيتها.

نظرت إلي زوجتي بعينيها الذكيتين وقالت:

_ حياة بني البشر مليئة بالتعقيدات .... كان عليه أن يطلب مصاحبتها كما فعلنا .... ولها حق القبول أو الرفض.

_ هذا الراعي لم يأت كراغب في المصاحبة الحقيقية! هذا الراعي جاء ليسرق متعة من فتاة لها من المشاكل ما ينسيها في كل متع الدنيا ...كما أنها ليست ملكا لنفسها ...فهي في ملكية والدها الأقرع الذي يحق له التصرف في مصيرها العاطفي.

بعد نهاية استراحة القطيع والرعاة سلكنا طريق العودة ونحن منتشرون نرعى ما تجود به الأرض ...وخلال ذلك أطل الكلب الأبيض علينا.

_أين كنت أيها الصديق؟ ألم تأكل شيئا؟

_ لا حاجة لي بالأكل فمنه تأتي كل الأمراض ...كما أن الأكل بدون شيخي لا معنى له.

_ لكن الأكل ضروري لتستمر الحياة.... هيا اذهب عند العنزة فقد يكون في جرابها طعام!

_ لقد فقدت الرغبة في الحياة .... أريد اللحاق بصاحبي.

نادت العنزة على الكلب الأبيض لكنه لم يستجب لندائها. أعرضت عنه وهي تراه متوجها نحو المكان الذي يوجد فيه قطيعه الأصلي، وهناك بقي واقفا يداري تعبه بالحركة بين الشياه التي ترعى، وفجأة انتصبت اذناه ليتوجه مسرعا إلى الأحراش ...هرول صغار الرعاة نحو المكان فلم يجدوا الذئب لكنهم وجدوا الكلب ينزف دما.

_ ضاع هذا الكلب بضياع صاحبه ...قال الكهل الذي وصل متأخرا ...شجاع رغم أنه لم يعد قادرا على القتال.

_ لقد رفض الأكل ...قالت العنزة ...رغم انني ناديته مرارا.

_وهل تحسبين ما اقترحت عليه أكلا؟ لقد كان مدللا عند صاحبه، ومن الصعب تأقلمه ...

_ لكن الكلب يبقى كلبا يا عمي! كل الكلاب ملزمة بالتكيف مع محيطاتها.

_ لو كان صغيرا لتأقلم ...لكنه على أبواب الشيخوخة .... سيجد في قطيع صاحبه حسن العزاء ...وسيقوم بواجبه بكل إخلاص .... لكنه سيهمل نفسه.

_ ما أروع وفاء الكلاب!

_ الكلب يبقى كلبا يا فلانة .... دواؤهم يبقى في دقهم كما تدق التوابل حتى تطلق رائحتها.

لأول مرة تعرفت على الاسم الشخصي للعنزة التي كانت لا ترفض لقبها عند المناداة عليها به. اقترب مني الكلب الذي سمع الحوار الدائر بين العنزة والكهل وخاطبني قائلا:

_ أنا معك أيها الزعيم بذيلي وأنيابي ...بشرط واحد.

_وما هو شرطك يا كلب القطيع الرئيسي؟

_ لا أريد عتابا عندما ألتهم أجزاء ممن ذبحوا منكم، لأن أكل لحومكم منبع من منابع سعادة الكلاب.

_ فليكن ...! رغم أنك لا تأكل سوى ما يعافه الانسان ويتخلى عنه.

_ هي خيرات تعطي لحياتنا نكهة ...إذا لم آكلها أنا فستلتهمها قطة الحيزبون.

وافقت على شرط الكلب فانصرف رافعا ذيله بانشراح.

_لقد أحسنت التصرف مع الكلب لأننا في حاجة إليه لضبط القطيع!

انتبهت إلى زوجتي التي كانت تتابع حواري مع الكلب وأنا لا أدري.

_وما الفائدة من تشغيل كلب لا يحترمه أحد؟ لو أن الكلب الضخم كان معنا لكانت الأمور أفضل.

_دع الكلب الأبيض وشأنه ...! كلبكم له مواصفات المخبر المثالي بحكم جثته النحيفة ووضعه الاعتباري المهين، يستطيع هذا الكلب الحصول على كل الأخبار التي نحتاجها لضبط أمورنا، سيكشف لنا عن خطط الذين يكرهوننا ويحاولون الإيقاع بنا، كما سينقل لنا ما يروج من أحداث داخل بيت الأقرع حتى نأخذ احتياطاتنا.

_ ذكاؤك رهيب أيتها الجميلة.

_ للحكم شروطه، واختيار الفريق المساعد هو حجر الأساس للسيطرة على القطيع من كافة الجوانب.

_ أين تعلمت هذه الامور؟

_ تجاربي متعددة، ...هل الحظيرة التي سنقيم فيها واسعة بما يكفي لإيواء القطيعين؟

_ ستلاحظين ذلك بأم عينيك وأتمنى ألا تصدمك حالتها.

_هل هي أسوأ من حضيرة الشيخ المتوفى؟

_ وهل توجد حضيرة أفضل من حضيرة الشيخ على وجه الارض؟

نظرت الي زوجتي باستغراب تهكمي ثم قالت:

_ يا صديقي! لقد مررت بحضائر يحلم سكان مدشر البؤس من البشر بالإقامة فيها...

_ حدثيني عن الحضائر التي مررت بها قبل الوصول إلي!

_ كل شيء بأوانه يا صديقي .....لكنني أخاف أن أصدمك.... قالت ضاحكة ثم انصرفت نخو صاحباتها من القطيع الوافد ونحن نستعد للعودة.

وصلنا الى الحظيرة والشمس تقترب من المغيب. وجدنا الأقرع ينتظرنا وبيده عصاه التي يستعملها في تسوقه .... تفحص القطيع الموحد بنظرة مهتمة ثم توجه نحو ابنته:

_كيف سارت الأمور يا فلانة؟

_على أحسن ما يرام يا أبي .... وكأنهم جميعهم مولودون في حضيرتنا ....

_ قريبا سأقوم بتوسيع الحظيرة حتى تستوعب العدد الحالي المرشح للارتفاع بفعل الولادات.

انصرف الأقرع وتسابق أعضاء القطيع الأصلي نحو أماكنهم التي تعودوا عليها علما بأن الأماكن المتميزة تم الحصول عليها بفضل القرون .... فعل بعض أفراد القطيع المندمج ما فعله الآخرون لكن نسبة كبيرة منهم بقيت مترددة في الدخول بعدما لاح لهم مظهر الحظيرة المزري، لكن أمر العنزة كان حاسما:

هيا ادخلوا وكفى من الدلال! لو أن أبي كان هنا لدخلتم وضرباته تنزل على ظهوركم.

بحثت عن زوجتي فوجدتها إلى جانب قطيعها الأصلي الذي لم يدخل جل أعضائه بعد:

_ انتهى زمن الرفاهية .... رحم الله شيخنا.

_نريد العودة الى حضيرتنا ...قال صوت باك.

_ حاولوا التأقلم مع الوضع .....قال الكلب الأبيض الذي رافق أصحابه إلى محل سكنهم الجديد ...فحضيرة نتنة ومسيجة أفضل من خلاء يطوف بالقرب منه ذئب منفرد ...هذه محنة مؤقتة ...فقد يستيقظ صاحبنا ويعيدنا إلى مكاننا الأصلي ...اعتبروا الإقامة هنا حلما مزعجا ستستفيقون منه ....قال الكلب قوله ثم ابتعد عنا متوجها نحو قبر صاحبه ....حاول بعض الصغار اللحاق به ، لكن العنزة والكلب كانا حاسمين ...فبعد التهديد بالضرب والعض ....والدفع المؤلم ...دخل الجميع الى حضيرة الأقرع التي تضاعفت رائحتها مع إغلاق الباب وانصراف العنزة والكلب .

_ هذه الحظيرة صالحة لعيش الخنازير فقط! قال كبش شاب.

_يلزمك تأديب على هذه الاهانة! أجبت بصوت حازم ...وأثناء محاولتي الوصول إليه قصد عقابه على قوله طمعا في إخراس أصوات قد تسعى إلى الاحتجاج ...ارتفع صوت غير اتجاهي.

_ انني أختنق...! انني اختنق ...

انطلقت كالسهم نحو مكان الصوت غير آبه باللواتي والذين دفعتهم بقوة في طريقي لأن النداء كان نداء زوجتي التي وجدتها وسط نعاج متقدمات في السن يحاولن إسعافها ...وما إن رأتني حتى ابتسمت بعتاب مستهزئ:

_ يا له من سكن جميل! هنا ستولد سلالتك ...وهنا ستنمو ....

_ لقد سبقك العديد من النعاج إلى هذا الأمر، وخرفانهم صاروا أكباشا يحسب لهم ألف حساب ...فلا تبالغي في الأمر! فلست سوى نعجة مثلنا! قالت النعجة التي أسعفت زوجتي.

حوار النعجتين كان فيه إخبار بحمل زوجتي .... أحسست بنشوة غامرة سارعت الى كبحها حتى لا تهتز صورتي أمام أقراني الذين أصبحت زعيما عليهم بضربة حظ فقط.

_سنتدبر أمرك أيتها العزيزة فاطمئني! هيا أفسحوا لزوجتي مكانا مناسبا لراحتها ...قلت بحزم.... فهي في بداية حملها الأول.

ارتفعت زغاريد النعاج مهنئة، وتم توجيه المحتفى بها الى أقصى الحظيرة المخصص لكبار الشخصيات وسط عبارات مهنئة من الذكور .... وأثناء مرورنا في مسلك تم استخراجه من زحام خانق، سمعنا نعجة ترفع عقيرتها بالاحتجاج:

_ أنا أيضا حامل .... وقانون الحضائر يساوي بين الحوامل.

توقفت ونظرت الى المحتجة بلطف، قبل أن أخاطبها:

_هذا خبر جميل يا أختي .... سترافقين زوجتي أثناء فترة حملها ...فتجاربك في إنجاب الخرفان متعددة .... وعندما تلدان سيتصادق الخروفان ....

_شرف لي مرافقة زوجتك أيها الزعيم ...

_ لكن زوجتي ليست خادمة لزوجتك يا ابن الحمراء ...! قال كبش على أبواب الكهولة ...هي طالبت بمكان مريح يناسب وضعها كحامل في هذا الزحام الرهيب أما أن تكون خادمة لزوجتك .... فلا وألف لا...!

أثناء ترافع الكهل عن وضعية زوجته، لم ينتبه الى اقترابي منه الى أن تلقى نطحة قوية أخلت بتوازنه.

_ أنا لم أقل خادمة ...بل قلت مرافقة ...فالنعاج لبعضها ...ولا دخل لك انت ....

دعاني الكهل للنزال بعد تلقيه لضربتي الاستفزازية، لم أجد صعوبة في هزمه وسط حلقة ضيقة تم احداثها في الزحام ...وبعد أن حسمت المعركة لصالحي، التحقت زوجته بمكان تواجد زوجتي وسمعتها وهي تشتمه منهية كلامها بما يلي:

_ يا ليتني أعرضت عنك ولم أطاوعك ...! قد يكون هذا الذي في بطني ذليلا مثلك

بعد اطمئناني على راحة زوجتي التي وجدت صعوبة في التأقلم مع وضعها الجديد، عقدت اجتماعا طارئا مع ممثلين عن القطيعين، وبعد نقاش جاد ومسؤول، خرجنا بالقرارات التالية:

_ تخصيص مكان محدد لكل فريق مع إباحة الانتقال والتزاوج بين القطيعين.

_ تمكين المرضعات والحوامل من فضاء مخصص لهن ولا يشاركهن فيه أحد.

_ تحريم المناطحات ذات الطابع الشخصي داخل فضاء الحظيرة.

الذكور مطالبون بالتخلي عن كل ما يتعلق بهم الى حين توسيع الحظيرة من قبل الأقرع.

_كل الأنشطة المحرمة مؤقتا داخل الحظيرة ...يجوز ممارستها في المرعى.

بعد عرض التوصيات على القطيع استحسنها الجل:

_ ولماذا لا نذهب للعيش في حضيرة الشيخ في انتظار توسيع حضيرة الاقرع؟

_الأقرع لم يمت.... لكن الشيخ مات ...ومن مات تنقل تركته للحي لأن الميت لا يأخذ معه شيئا إلى العالم الاخر.

_ مات الشيخ نعم...! لكن الحظيرة باقية .... يمكننا الذهاب اليها وتنظيم أمورنا هناك.

_ لو كنا قادرين على تنظيم امورنا كما تقولين .... لما تحكم في رقابنا الأقرع والكهل وغيرهما.

_ لا تنسوا بان الشيخ كان يذبحكم أيضا.

_ نعم .... لكنه كان يفعل ذلك برفق ويراعي شعور الآخرين.

_ وما الفرق بين الذبح العنيف والنحر اللطيف؟

_ يا صديقي! في كل بقاع العالم لا توجد مقبرة خاصة بالأغنام، وهذا دليل على أن الذبح هو مصيرنا الرئيسي .... فلنحاول تنظيم أمورنا في انتظار ذلك.

قبيل النوم همست لي زوجتي بان أهلها قد اتفقوا على أمر ما، وبأنهم تعمدوا عدم إخبارها بذلك بحكم علاقتي بها .... كما أكدت لي بأن الأمر لا يتعلق بزعامتي، وبأن مخبرا سيحكي لها التفاصيل في الصباح .... نام الجميع رغم الاكتظاظ الخانق ....

سمعنا الباب يفتح فاستيقظنا قبالة العنزة التي نادت علينا بأسلوبها الضاحك....أثناء خروجنا لاحظت بان الفريق المندمج قد انزوى في ركن من الأركان تاركا لنا حق أسبقية المغادرة ....بعد خروج آخر شاة من القطيع الأصلي شرع الفريق المندمج في الخروج بنظام مثالي ليجدوا أنفسهم قبالة الكلب الذي قضى ليلته فوق قبر صاحبه واثار التعب بادية عليه ....وكسرب جراد متكامل انطلق القطيع نحو وجهة مجهولة بالنسبة لنا وكلبهم يتبعهم....حاولت العنزة ضبط الأمور لكن الحدث تجاوز قدراتها فشرعت في الصراخ المصحوب بالشتائم ليظهر الأقرع وآثار النوم بادية عليه :

_ أصبحنا وأصبح الملك لله ...! ماذا يقع يا أيتها العنزة؟

_لقد فر قطيع الشيخ يا أبي!

_خذي القطيع إلى المرعى ...! سأتكلف بإعادة المتمردين ...وسأعيد تربية الثائرين ..... هيا ...! أسرعي ...!

أثناء سيرنا نحو المرعى، سمعت زوجتي تنتحب فالتفت نحوها متسائلا:

_ ما بك أيتها الحسناء؟

_لولا ابنك الذي يوجد في بطني، لتبعت قطيعي ...فالحياة في حضيرة الأقرع لا تطاق.

_ حضيرة الأقرع كسائر الحضائر ...فهي توفر الأمان من الذئب رغم أنها لا تحمي من البشر ...أما بالنسبة لقطيعك فإنه سيعود صاغرا لا محالة.

أسرعنا الخطى نحو المرعى بسبب الجوع الذي أخذ منا .... فوجدنا بان الأخبار قد سبقتنا إلى هناك .... بحيث اشترك الرعاة في تحليل هذه الظاهرة التي حدثت لأول مرة:

_ انها ثورة الخرفان! قال راع لم يتمم دراسته ...فعاد لممارسة مهنة أسلافه.

_ أعتقد بأنه الحنين الذي جعل القطيع يفر ....

_ لا أعتقد بأن الحنين سبب ...الفرار أملته الحالة المزرية لحظيرة الأقرع....

ما أن أتم الراعي كلامه حتى رفع يده إلى رأسه ...ليعيدها قبالة بصره وهي ملطخة بالدماء.... لقد رمته العنزة بحجر جوابا على التعرض لحظيرة أهلها بسوء:

_أيها الراعي القذر! تكلم باحترام عندما تذكر أسيادك!

فقد الراعي عقله من الغيض، وتوجه نحو العنزة بعصاه ليضربها، لكن الكهل حال بينه وبين ذلك.

_لولا أنك امرأة لكسرت عظامك! قال الراعي وهو يضمد جرحه بخرقة من قميصه بعد أن أضاف اليه بعض التراب الرطب.

قبيل منتصف النهار لاح الأقرع وهو يسوق القطيع المتمرد الذي عاد وهو يمشي بانضباط تام ومن خلفه يبدو الكلب الأبيض وقد احمر رأسه بفعل جرح غائر.

_ لقد استعمل الأقرع مدفعيته الثقيلة! علقت نعجة عجوز.

وصل القطيع المتمرد إلى مكان الرعي، وتسلمت العنزة العهدة من والدها الذي غادر وهو يجر خروفا من فيلق الثوار.

_ ما كان عليكم فعل ذلك أيها الأشقياء ...والدي لا يشبه شيخكم ...والتمرد عليه يعني التعرض لأشد أنواع العقاب ...فانصرفوا للرعي واملؤوا بطونكم بما يفيد فإن ليل الحظيرة طويل .... ولا تبن لدينا هناك.

_ أعتقد بأنكم قد فهمتم الرسالة! قلت موجها كلامي لفيلق المتمردين ...لا مزاح مع الأقرع ...انتهى زمن الشيخ الصالح الذي كان يعتبركم كأبنائه .... وحان وقت الاقرع الذي لا يرحم.

أثناء مخاطبتي للمتمردين رأيت زوجتي تقترب منهم وتحاول الاختلاط بهم، لكن بعضهم تجنبها، ولم يرد على تحيتها.

_أنا حامل من زعيم القطيع الأصلي، ووضعي لا يسمح لي بالجري السريع، وأنتم أعرضتم عني ولم تخبروني بنيتكم.

_ أنت منا، وكان عليك الاقتداء بفعلنا حتى وإن لم نخبرك ذلك، أما عدم اخبارك بما نوينا فعله، فنابع من تخوفنا من إخبارك لزوجك.

_ ها أنتم قد عدتم مذلولين مدحورين والأعطاب تملأ أجسامكم.

_ لقد تنكرت لقطيعك الأصلي ...فأنت خائنة وناكرة للجميل ...! قال كبش شاب بغضب.

قبل أن يكمل الخروف قوله، عاجلته بنطحة فتقهقر الى الوراء:

_ أيها الغبي! انها زوجتي، وإهانتها تعني إهانتي.

لم يستطع الخروف دعوتي للنزال لأنه يعرف النتيجة مسبقا وانشغل بالرعي وهو يطلق أصواتا لم يفهمها أحد من أفراد القطيع الأصلي، لكن إيقاعها يشبه الغضب أو التهديد.... طلبت من زوجتي تفسير الأمر فأخبرتني بأن الأمر متعلق بنداء القهر ...وانصرفت دون إكمال الشرح.

مر ما تبقى من اليوم عاديا بعشبه القليل ومياهه التي بدأت تفقد طعمها بعد اختلاطها بالتراب بسبب تأخر المطر. حديثي مع زوجتي كان مقتصرا على بعض الكلمات التي تهم العشب، وعندما أثارت موضوع العشاء التكميلي الذي كان يتمتع به قطيعها قيد حياة

الشيخ ...أعرضت عنها وتوجهت نحو نعاج أخريات في إطار مجاملات يجب علي القيام بها كزعيم ...تجاهلت زوجتي أمري والتحقت بقطيعها مواسية الكبش الذي عاتبها فكان عقابه النطح.

أثناء عودتنا استنفرت العنزة ملكاتها كراعية محترفة، وحرضت الكلب على اليقظة تحسبا لتمرد غنمي جديد وحاولت استقطاب الكلب الأبيض لجانبها، لكنه أعرض عنها وتوجه نحو المقبرة حيث يرقد صاحبه. على مشارف المدشر وجدنا الأقرع ينتظرنا وبيده عصاه، وبعد اطمئنانه على وجود القطيعين انصرف الى وجهة أخرى بعد أن صاح:

_ قريبا سوف أقوم بتوسيع الحظيرة أيها الملاعين! وأنتم من سيدفع الثمن لأن مواد البناء غالية، وبيع العديد منكم سيكون ضروريا.

_ كلام الأقرع يتشابه مع وعود السياسيين من البشر ...قال جدي يافع .... قول كثير وفعل منعدم.... في العام المقبل إن كان في العمر بقية، سيجدد الأقرع وعده.

_أتمنى أن أكون أول من تباع! صاحت زوجتي ... الأمر الذي أثار حفيظتي:

_ هل وصل كرهك لي لهذا الحد؟ أيتها الحسناء.

_ لك نعاج قطيعك اللواتي ما فتئت تجاملهن.

_ ضرورة الزعامة تقتضي مجاملة الجميع.

_ لكنك بالغت .... وخصوصا بعد أن حدثتك عن نقطة العشاء التكميلي في الحظيرة.

_توفير عشاء تكميلي في الحظيرة يتجاوز طاقتي، فأنا زعيم على القطيع، لكنني خروف قبالة الأقرع ... أما مجاملة الأخريات .... فلن أفعل بعد الآن ...

_ وبماذا تتميز عنا هاته الصفراء حتى تذل نفسك من أجلها أمام كل القطيع أيها الزعيم؟

انتبهت إلى مصدر الصوت فإذا به لخروفة شابة ولدت في الحظيرة ولها من البهاء نصيب، وأثناء بحثي عن جملة صلبة مضمخة بكلام رطب أرد به على هذه الجميلة، حتى تلقت صاحبتنا نطحة قوية من رأس زوجتي:

_ ابتعدي عن زوجي أيتها القذرة! فما يناسبك متوفر في الحظيرة بما يكفي.

_ حاليا أنت حامل ...والحامل في قانون الشياه لا تهاجم حتى تلد ... لن تخسري شيئا إن انتظرت أيتها النتنة.

أنهيت صراع النعجتين بمشقة ، وفي الحظيرة أعطيت تعليمات بتخصيص مكان للجرحى الذين أصابتهم عصا الأقرع أثناء تمردهم ، وطلبت من القطيع المندمج اختيار لجنة تنضاف إلى لجنة تسيير الحظيرة ، ودعوت الجميع الى عقد اجتماع طارئ قصد ترتيب أمور عيشنا المشترك التي تنتظر توسيعا ،كما اقترحت إلحاق الكلب الأبيض رسميا بالقطيع حتى يتعاون مع الكلب الأول في تنظيم الأمور ، لكن اللجنة الموسعة لم تسايرني في اقتراحي لأن القطيع يجب ان يكون تحت إشراف كلب واحد ، ولأن الكلب الأبيض قد تدهورت حالته الصحية بعد إعراضه عن الطعام وملازمته لقبر صاحبه .

تأثرت كما تأثر الحاضرون من موقف هذا الكلب الوفي ...وبتوجيهات مني تم إحداث مسافة فاصلة بين فريق القيادة المجتمع وباقي أفراد القطيع قبل أن أنادي على الكلب الذي تقدم نحونا مزهوا بذيله المعوج والمرفوع إلى الأعلى.

_ أيها الكلب! نحن نعرف بأن ولاء الكلاب يبقى أولا وأخيرا لأصحابها، لكن عيشنا المشترك يفرض عليك التعاون معنا أيضا .... لقد أصبحنا قطيعا واحدا، ومن حق الوافدين معرفة ما يروج في هذا الفضاء الذي فرض عليهم العيش فيه، فتفضل ببسط ما تعرفه، خصوصا وأنك تستطيع الدخول إلى بيت الأقرع وتعرف أدق تفاصيله. نحن نسعى فقط الى تيسير عيشنا المشترك في انتظار ذبحنا لأننا مذبوحون لا محالة، لكن ذلك لا يجب أن يرعبنا أو يثنينا عن ممارسة حياتنا الطبيعية، فكل الأحياء بمن فيهم أنت مصيرهم الهلاك.... سواء أكان ذلك بالسكين أو بغيره.

تنحنح الكلب بلهثة خافتة حتى يصفو صوته، ثم توجه نحو الجدد قائلا:

عالمكم الجديد يختلف تماما عن العالم الذي كنتم تعيشون فيه ...أنا أعرف جلكم عندما كنتم في ملكية الشيخ الهالك ....شيخكم كان متعلما وحنونا ...أما أقرعنا فجاهل وقاس ....شيخكم كان يربيكم من باب الهواية ، والتشبث بنمط حياة كان بإمكانه الاستغناء عنه ...أما أقرعنا فإنه يمارس ذلك مضطرا ...لأنه لا ينتمي لهذا المدشر الذي وفد عليه راعيا لدى أسرة زوجته التي استطاع التسلل إلى قلبها بعد صدمة عاطفية كان السبب

فيها احد أقرباء الشيخ .زواج الأقرع من الحيزبون التي لم تكن كذلك جاء لستر فضيحة لا تعتبر لدينا كذلك ...بعد وفاة والديها ورحيل أخواتها وإخوانها نحو المدينة أصبح الأقرع متحكما في قطع أرض متناثرة في قرون الجبال, وفي قطيع ينمو ويتناقص حسب الظروف ، وهذا الأمر لم يكن ليحلم به ...وعندما ذاق حلاوة المال ارتمى في بحر أهوائه المليء بالمتع المحرمة ، والتي تتطلب مالا يحرص على توفيره من كراء أراضي زوجته ، وبيع أفراد من قطيعه وتأجير أبنائه للخدمة لدى الآخرين ....كل أبنائه غادروه , وقلما يذكرونه بخير ...العنزة تهدد بالمغادرة في القريب العاجل ...والطفل ينتظر اشتداد عوده فقط ...والحيزبون تندب حظها العاثر منذ زمن بعيد .

_ ومن يمنعها من ترك الأقرع والالتحاق بأهلها؟

_ البيت بيتها، لكن الاقرع بعلها وبينهما عدة أبناء، وعندما تهدده بالمغادرة يرحب بالفكرة مؤكدا على مطالبته بأجره كحارس على أملاك سلالة الجوع كما يحلو له أن ينعت أصهاره.

توقف الكلب عن الكلام ليسترجع أنفاسه ثم أضاف بلهجة تهكمية ضاحكة:

_ حياتنا هنا تتجاوز عيش الكلاب بكثير كما يحلو للبشر نعتنا بذلك...لا فرق بين الشاة والعنزة والكلب والقط والحمار ...واهل الأقرع ايضا لأن الأقرع نفسه كلب ابن كلب ....

_ من حق الكلب أن يعيش عيش الكلاب فهذا أمر طبيعي ...قال أحد أعضاء اللجنة ...اما ان يعيش الإنسان عيشة الكلب فتلك قضية أخرى ....

_ جاء دور القطيع الوافد ليحدثنا عن أحواله ...قلت بحزم ...وبما أن كلبه يرقد فوق قبر صاحبه ...فمن منكم يستطيع؟

_ في حضيرتنا سلحفاة معمرة، وهي صديقة للجميع، لكنها حاليا في وضعية سبات، وعندما ستستيقظ ستصدم بعدم وجودنا في استقبالها ...هي المؤرخة الرسمية للمكان وأهله بحكم تقدمها في السن ...ولم تبخل علينا بالمعطيات لأنها عايشت كل الذين سبقونا ...وبما أن ذاكرتها قوية فإنها تعرف الكثير ...حتى وإن استفاقت من سباتها فإنها لن تستطيع الوصول إلينا ...

_ من المؤكد أن بينكم من له من سعة الذاكرة ما يكفي لسرد بعض الوقائع.

طبعا ، رغم أن قوة الذاكرة لا تدفع عن صاحبها السكين ....السلحفاة كانت تحدثنا دائما عن طيبة الشيخ المتوفى ...وهذا الأمر لا ننكره لأنه لم يسبق لنا أن رأيناه يضرب شاة بغير سبب ، أو يقذف كلبا بالحجارة من باب الهواية ....كما أنه كان كريما ، وكرمه غالبا ما يتم على حساب لحومنا التي يعشقها البشر .لقد كان يبيع قليلا ويعطي لغيره من المحتاجين كثيرا ، وخصوصا في المناسبات والأعياد ...السلحفاة أخبرتنا بأن أوضاعه المادية لم تكن مختلفة عن أهله وجيرانه من سكان المدشر ...ومع ذلك كان لا يختلط بهم ...ومما زاد في تنافره معهم زواجه من خارج المدشر الذي اعتبر سابقة ...هذا الزواج تم خلال تجواله في العديد من بقاع الدنيا كما تقول الألسن التي ذكرت بأن أم الشيخ قد حملته , وهو صبي صغير وهجرت الديار بعد أن ضاق الحال بها على إثر وفاة والده لتغيب أخبارها عن سكان المدشر الذين تضاربت أقوالهم حول مصيرها ، لكن عودتها به وهو شاب قوي أخرست الألسن رغم انهما لم يستقرا في المدشر سوى مدة زمنية قصيرة رمما فيها الدار التي تحولت الى خربة ليغيبا من جديد .....

أثناء استماع اللجنة المشتركة لتقرير الكبش الناقل لرواية السلحفاة، ارتفعت أصوات من وسط الحظيرة:

_ إننا نختنق في هذا الزحام ...وأنتم تتجاذبون أطراف الحديث في مكان فسيح! فبماذا ستنفعنا اجتماعاتكم؟

_ أصمت أيها التيس! قال الكلب مهددا ...فلجنة القيادة مجتمعة قصد التداول في شأنكم العام، وخلاصات اجتماعاتها ستعود على كل أعضاء القطيع بالخير العميم.

_ الخير يكمن في التوزيع العادل لفضاء الحظيرة عوض استحواذكم على الأماكن المتميزة فيه .... الصغار يختنقون .... والحوامل يعانين باستثناء زوجة الزعيم وخادمتها ...و.....

لم يستطع الجدي اكمال كلامه لأن زوج خادمة زوجة الزعيم باغته بنطحة شاتما إياه:

_ زوجتي ليست خادمة أيها التيس التافه! زوجتي ترافق حرم الزعيم في حملها. الأول فالزم حدودك!

لم يتمكن الحاضرون جميعهم من متابعة أطوار النزال بين الكبش والتيس بفعل الاكتظاظ لكن المعركة كانت حامية في حين استمر عضو اللجنة القيادية في تقديم تقريره بصوت مرتفع:

_ بعد وفاة الأم ودفنها في المكان الذي دفن فيه ابنها مؤخرا ...استمر الشاب في غياباته الطويلة وزياراته القصيرة لمسقط رأسه ...وفي كل مرة كان يكلف بعض الأقارب والجيران بإضافة بناءات جديدة بمقابل سخي ... توسع منزله وأصبح مثار نقاشات في وسط مدشر البؤس .من الجيران والأقارب من فرح وبارك بنجاح هذا اليتيم ...ومنهم من أكل الحسد قلبه فأطلق الإشاعات المغرضة وساهم في نشر أقاويل حول ثروة غير شرعية حصل عليها الشاب بطرق ملتوية ...ومما زاد من تنافره مع جل أهل مدشره زواجه من امرأة مختلفة تماما عن نساء أهله ...وقد نتج عن ذلك مشاحنات في بداية استقراره بين نساء العشيرة وزوجته التي تبعته من مكان بعيد كان يطلب فيه رزقه...وكان لها دور أساسي في تحويل زوجها إلى شخص آخر لا يختلط كثيرا بالأهل ولا يفعل ما يفعلون حتى انه أصبح موضوع تندر في ملتقيات السكان التي تمليها المناسبات الاجتماعية .

الزوجة كانت تقرأ وتكتب، وفرضت في بيتها نظاما داخليا تطبعه الصرامة المقرونة بالنظافة المفرطة .... فقد حرصت على تلقين بناتها وأبنائها مبادئ الكتابة والقراءة قبل وصولهم الى سن التمدرس ...كما أنها تلافت ربط علاقات مع جاراتها وقريبات زوجها .... كان الشيخ راعيا وفلاحا خارج البيت. لكنه كان مطالبا بالتخلص من آثار البداوة بعد دخوله إلى البيت ...وقد أدى ذلك الى تجنبه الاختلاط اليومي بأبناء عشيرته سوى في المناسبات الضرورية ...متغاضيا عن التلميحات المباشرة والمبطنة التي كان يتلقاها من أبناء عمومته.

كبر الأبناء وحصلوا على مصادر عيش تغني والدهم عن الرعي، واقترحوا على والديهم الانتقال للعيش في المدينة بعد تقدمهم في السن لكن والدتهم كانت حاسمة:

_ أنا تبعت والدكم من مكان بعيد، وتخليت عن أهلي بسببه ...هذا اختياري ...وهنا أريد أن أدفن!

مع تقدمها في السن تطبعت العلاقات نسبيا بينها وبين بعض النساء اللواتي اختارتهن بدقة متناهية ...كانت تضيف وتستضاف ...تساعد بالمال وتضع تجهيزات مطبخها رهن إشارة الراغبات .... تبتسم ولا تضحك .... وعندما تسأل عن أصولها تصمت ولا تجيب ...وتنهي الجلسة ....

_ أما نحن فإن حياتنا ستنتهي هنا بفعل الاختناق وأنتم تتسامرون حول تاريخ قد مضى .... قال التيس الذي يتابع التقرير من بعيد .... يا حكام الحظيرة أريحونا من الكلام وافسحوا لنا مكانا نتنفس فيه بعض الهواء ...!

زمجر الكلب مهددا كما فعل في المرة الأولى .... لكن عددا من الأصوات ارتفع مناديا بإنهاء الاجتماع قصد استغلال مكانه كمتنفس من اكتظاظ رهيب.

تجاهلت الاحتجاجات وطلب من السارد الاستمرار فاسترسل:

_ بعد وفاتها دفنت في مقبرة المدشر التي امتلأت عن آخرها بغرباء لم يدخلوا إلى المسجد للصلاة، لكنهم ساهموا في الدفن والتـأمين .... وقبيل ذهابهم أكرموا فقيه المدشر بمبلغ مالي لم يتوصل به من قبل.

_ونحن نحلم فقط بمكان اضافي يخفف عنا وطأة الاكتظاظ ... ! صرخ التيس المحتج لكن راوي تاريخ الحظيرة المندمجة لم يتوقف:

_تضاربت الأقاويل بعد رحيلها ...ومن الألسن من ادعى بأن دين المتوفية مختلف، لكن الشيخ الذي كانت أفضاله تغطي جل السكان أقسم بان دين زوجته هو دين المدشر .... هناك من صدق القول وهناك من اتخذ منه موضوعا للحديث في محيط المسجد وحتى في المراعي ....

_ ولا زال القول مستمرا في حضيرة الأقرع التي ابتليت بوافدين جدد أفسدوا هواء الحظيرة ...صاح أحد المحتجين.

_ حاول الأقارب إخراج الشيخ من وحدة الترمل مع ما يصاحب ذلك من رغد العيش الذي قد يصيب الأصهار الجدد لكن الشيخ كان حاسما:

_ لن أجد امرأة تنجب لي ما أنجبته السابقة، كما أنني لا أريد أن أترك أيتاما قد ينساهم أخوتهم في مدشر كتب على سكانه الجهل والشقاء .... وكذلك عاش حياة الترمل إلى حين وفاته ...لا يزور ولا يزار ...والمناسبات الاجتماعية التي كانت تلاقيه بأبناء عمومته اقتصرت على المشاركة في دفن الموتى وبعض الاحتفالات التي دأب الناس على إقامتها في المسجد.

تناوب أعضاء فريق القيادة المندمج على سرد الوقائع انطلاقا من ذاكراتهم أو مما سمعوه من الذين سبقوهم .... وبين الفينة والأخرى يتدخل أحدهم لإغناء العرض أو تصحيح معلومة وأنا أتابع بانتباه شديد .... ولم أرفع الاجتماع إلا في ساعة متأخرة من الليل رغم احتجاجات ارتفعت لهجتها بسبب الزحام وكثرة الكلام.

انتهى الاجتماع الرسمي وأسرع عدد من أفراد القطيع الى أماكنهم التي كانت مصادرة بسبب اجتماع لجنة القيادة .... لينخرط الجميع في نوم عميق بسبب التعب .... قبيل ذلك أخبرتني زوجتي بأن أحد البصاصين أنبأها بأن عددا من أبناء القطيع الأصلي يسعون الى سحب الزعامة مني، من خلال جري إلى نزال مع أحد أقاربي الذي ظهرت بوادر قوته ...وبأن هذا الاخير قد غازلها.

فار دمي لكن نصيحة زوجتي كانت واضحة ومحددة:

_ تصرف بشكل طبيعي كأنك لا تعلم شيئا، وفي الصباح بادر إلى استفزاز غريمك ومهاجمته والقضاء عليه .... لأن قوته هائلة ...وإذا ما أدرك ذلك فإنه منتصر لا محالة ...وانهزامه أمام الذين شجعوه على المغامرة سيكون بمثابة درس للجميع.

غادرني النوم وبقيت أفكر في الأمر الى حين اقتراب الفجر، وعندما نمت رأيت امي في المنام .... لم تكن ضاحكة مستبشرة كما رأيتها آخر مرة .... اكتفت بثغاء تشجيعي ثم توارت في السراب ...كنت انتظر سماع صوتها، لكن صوت العنزة الذي جاء من باب الحظيرة أفسد حلمي:

_ أعتقد بأكم قد فهمتم بأن مصيركم مشترك وواحد ...لقد أصبحتم قطيعا واحدا ...وقريبا ستنمحي آثار النظافة والأناقة من فراء الوافدين.... هيا إلى المرعى! وليبحث كل واحد منكم عن رزقه هناك ...! فليس في حضيرتنا عشاء ولا فطور ولا غذاء ...نحن فندق يوفر الإيواء فقط ...

كنت من السباقين إلى الخروج وزوجتي ترافقني، نظرت إليها العنزة بدهاء ثم قالت:

_ وأنت يا غانية النعاج .... متى ستضعين حملك؟

ضحكت كما ضحكت زوجتي، كما سمعت من خلفي ضحكة تجاهلتها بعد تعرفي على صاحبها ...لقد كانت ضحكة الخروف الذي حدثته نفسه الأمارة بالزعامة بإزاحتي.

في نهاية الطريق الموصلة للمرعى وجدنا الكلب الأبيض ينتظرنا وقد تدهور مظهره الذي كان مهيبا ...رثيت لحاله عل عجل، لأنني كنت أفكر في الطريقة المثلى للقضاء على غريمي.

ما إن استقر بنا المقام في المرعى حتى شرعت الأفواه في التقاط عشب يكاد يغيب بين الأحجار الناتئة .... بحثت عن الحالم بالزعامة، فلمحته يرعى بنهم قرب زوجتي، توجهت نحوه وعاجلته بنطحة على جانبه فترنح:

_ ماذا أصابك أيها الزعيم؟ هل أصبحت تهاجم الخلائق من غير سبب؟

_ أنت ترعى قرب زوجتي، وتضايقها في البحث عن عشب هي أحق به منك بسبب حملها.

_ ادعاؤك مردود عليك .... العشب رهن إشارة الجميع ...وأنا أرعى كما ترعى زوجتك.

_ وتكمل وقاحتك بالكذب! أيها الحضور ...أنا أدعو هذا الخروف للنزال!

_سيعرف القطيع من الخروف فينا! فال غريمي بثقة.

في قانون الخرفان...عندما تتم الدعوة للنزال ...فإن الأمر يصبح ملزما للطرفين، والمتخلي يعتبر منهزما ولا يؤخذ برأيه ما دام حيا ...

تم تحديد رقعة المعركة وانتداب لجنة التحكيم للإشراف على نزال يعرف البعض فقط أسبابه.

انطلق غريمي نحوي كشهاب ناري، وفي نيته القضاء علي من أول ضربة، لكن خبرتي في القتال جعلتني أستنزف قواه بالمراوغة إلى أن نال منه التعب ...فلم أجد أية صعوبة في هزمه ودفعه إلى خارج الرقعة مطأطئ الرأس ...والثغاءات الساخرة تلاحقه .... بقيت واقفا في وسط الساحة لمدة قصيرة لأرفع بعد ذلك صوتي بالخطاب:

_ من أراد الزعامة فليطلبها بشكل مباشر .... أما الاجتماعات السرية واتفاقات الكواليس فإنها مخصصة للبشر الذين يتفقون ليلا وينقضون مواثيقهم مع طلوع الشمس ...ا

انصرفت للرعي بحثا عن عشب يمنحني طاقة تضمن زعامتي والتحقت بي زوجتي والقلق باد على محياها:

_ أعتقد بأنني سألد في هذا الخلاء ...

_ جل من ترينهم امامك قد ولدوا هنا أو هناك حيث ولدت أنا ...الولادة في الهواء الطلق أفضل من فعل ذلك في حضيرة نتنة بفعل غياب النظافة ...أتفهم قلقك ...وأتعاطف معك لكن ليس لدي ما أقدمه لك ...فاعتمدي على نفسك واستعيني بذوات الخبرة ممن سبقنك في الولادة ....

ابتعدت زوجتي عن القطيع متبوعة بمرافقتها، وبعد مدة ولدت حملين جميلين من صلبي لتتعالى زغاريد النعاج وتتوالى تبريكات الأكباش.

_ هل تفرحون بولادات ...السكين مصيرها؟

_ كلنا مذبوحون بشكل أو بآخر...من لم ينحره السكين مات بغيره ... وفي انتظار ذلك تظهر تفاصيل الحياة التي تنتج وهم السعادة والشقاء، وأسطورة الفرح والحزن.

فرحة العنزة كانت كبيرة بازدياد الخروفين ...نظرت الي بدهاء ثم قالت:

_تبا لك أيها الشقي! لقد شهدت ولادتك في الخلاء .... وها هي سلالتك تولد في نفس الفضاء.

نظرت إلى الصغيرين وأمهما تلحسهما بنفس اللهفة التي لحستني بها أمي ...فلم أجد بدا من إطلاق سراح دمعتين محبوستين في مقلتاي، رغم أن الزعماء يحرم عليهم البكاء أمام رعاياهم.

أثناء القيلولة التي تعقب الشرب، اكتشفت بأنني صرت موضوعا لحديث الرعاة الذين كانوا يرتاحون من تعب المراقبة المصحوبة بالحركة الدائمة.

_ هذا الكبش العفريت استطاع توحيد القطيعين من خلال هذا الزواج المثمر الذي أنتج خروفين من جنسين مختلفين .... سيسعد الأقرع بذلك حتما.

_ بل سيسعد صاحبته الساكنة في المدينة، فكل ما يأخذه الأقرع يذهب اليها ...

_ وما شـأنك أنت أيها الراعي القذر؟ أليس لك شغل تقوم به سوى الخوض في أعراض الناس؟ قال الكهل الذي تتبع الحوار.

ساد صمت بعد كلام الكهل الذي حمل تهديدا مبطنا ...وفي محاولة لتلطيف الأجواء نطق راع مراهق:

_الخروف يشبه والده ...أما الخروفة فما أشبهها بصاحبتنا العنزة....

_إذا ما أضفت كلمة ثانية في حق فلانة .... فإنني سأقوم بتوسيع فمك بواسطة السكين ...!

_ نظر الراعي برعب إلى صاحب الصوت الذي لم يكن سوى الكهل الذي أضاف والشرر يتطاير من عينيه:

_ هل فهمت كلامي أيها الغلام؟

_ لم أقل شيئا عن جارتنا وابنة عمنا .... لقد أطريت على جمالها فقط.

_هذه آخر مرة أسمع فيها كلاما عن هذه البنت، لأنها أصبحت خطيبة ابني الذي سيغادر السجن قريبا.

_ حمدا لله على سلامته ...لقد كان صديقي قبل أن يقع له ما وقع...

أعرض الكهل عن الرعاة وانزوى في مكان ليتغذى من جرابه بينما استمر الحديث:

_ أتمنى ألا يعود الأحول للرعي .... فمشاكله لا تنتهي ...

_ أعتقد بأن السجن قد رباه .... فهناك لا يسمح للذبابة بالطيران إلا بإذن من الحراس.

_ ذاك عهد قد مضى ...مساجين اليوم يأكلون جيدا ...ويتمتعون بالتطبيب، ويمارسون الرياضة ...ومنهم من أكمل دراسته هناك.

_ وماذا يمنعك من الذهاب إلى هناك؟ عوض المكوث في مدشر البؤس الذي يحيط به الحرمان والبؤس من كل جانب؟

_ علي أن أقتل راعيا مثلك ...! علما بأن قتلك لا يستحق سجنا ... فأنت ميت رغم أنك تمشي على قدميك.

ضحك الحاضرون من الحوار المازح الذي استمر.

_ قل يا فلان! هل سبق لك أن سجنت؟

_ كان ذلك قبل تحسن أوضاع السجناء.

_ ومن أخبرك بهذه المستجدات؟

_ سجين سابق تجمعني به طاولة القمار في السوق الأسبوعي.

_هل لا زلت تقامر؟

_ ليس لي ما أقامر به ...لكنني أجلب الزبائن للطاولة مقابل عمولة .... آخذ من الرابح وأواسي الخاسر.

_ أتمنى لك سجنا مريحا يريح جثتك، ويغنيك عن البحث عن رزقك المفقود هنا.

انصرفت عن تتبع الحديث بعد أن شرع الرعاة في تقاذف الكلام الفاحش فيما بينهم ...وبعد ذلك أخبرني الكلب الذي أصبح بصاصي الخاص بأن للكهل ابن مسجون بتهمة سرقة المواشي التي كانت تباع للجزارين ليلا ...وبأن الابن قد لبس التهمة لوحده عوض شريكين له هما والده والأقرع اللذان كانا ضالعين في كل العمليات.

خلال عودتنا كانت العنزة تحمل سلالتي بشغف وزوجتي تتبعها بلهفة، فتذكرت أمي التي فعلت نفس الشيء من أجلي فلم أجد بدا من بكاء صامت أغناني عن التفكير في مشقة الطريق.

وجدنا الحيزبون تنتظرنا وعيناها تلمعان بفرح غريب، فاعتقدت بأن خبر إنجابي قد سبق، وبأن ربة البت متشوقة لرؤية الوافدين ...لكن الأمر لم يكن كذلك ...اكتفت المرأة بإلقاء نظرة على الحملين: وبعد أن تعرفت على أمهما قالت بنبرة عادية:

_هذا فأل جيد .... ثم أطرت على جمال النعجة متجاهلة إياي.

ساعدت الحيزبون ابنتها على ادخالنا، وبعد الاطمئنان على الحملين وسط الزحام، غادرتنا نحو المنزل لتعود بعد ذلك وهي تحمل طعاما للنفساء وإناء معدني فارغ لتنطلق عملية الحلب التي رافقها حوار بين الأم وابنتها:

_ قريبا ستغادرينني يا ابنتي ...! لكنك لن تكوني بعيدة.

_ هل طلبني أحد للعمل لديه؟ لا أريد الاشتغال عند الأخرين ولو أكلت التراب .... إذا ما أكراني ابي ...فإنني سأهجر هذه الدار ولن أعود...

_ لا يتعلق الأمر بالكراء ن لقد خطبك الكهل لابنه ...ووافق والدك.

_ وهل أنا نعجة حتى يبيعني أبي لمن أراد؟ البنات يتزوجن من شباب يشتغلون بشرف منهم العامل والموظف والتاجر ...وانا سأتزوج سارقا خارجا لتوه من السجن .... ما أسعدني بهذه الزيجة!

_هذا قرار والدك ...ولك أن تواجهيه بالرفض .....

انخرطت العنزة في بكاء حاد .... بينما استمرت أمها في حلب الشياه وهي تسبهم وتسب زوجها ...والنعاج يبادلنها شتائمها بشتائم أشد .... هم يفهمون ما تقول .... وهي لا تفهم ...

_ ويقولون بأن للبشر عقل يفكرون به، ويقودهم لفعل الصواب. رجل يفرض على بنته زوجا لا تريده، وبنت لا تستطيع قول لا لوالدها .... ومع ذلك يضربن الأمثال بالنعاج.

_ رغم أننا حيوانات لا تفهم كما يقولون، فإنني أؤكد لكم بأن البشر متخلف عنا في مجال الحريات العاطفية، نحن نربط علاقاتنا بناء على التراضيْ، ولا نتعرض لوصاية الوالدين، ونفسخ علاقاتنا بالسهولة التي ربطناها بها ....

غادرتنا العنزة وأمها بعد انتهائهما من الحلب، لينطق مسلسل تدبير المجال تحت اشرافي وبتنفيذ من لجنة القيادة، وبما أن زوجتي وسلالتي حصلوا على مكان متميز، فإن الحكم بالتقسيم العادل لفضاء الحظيرة كان سهلا بالنسبة لي ومنطقيا في نظر أعضاء القطيع الموحد.... عدد من الخرفان جاعوا ...ولما لم يجدوا حليبا في ضروع أمهاتهم ملأوا الحظيرة بالثغاء ومنعوا الباقين من النوم.

خلال الليل أخبرت زوجتي بأنني انوي الاستمرار معها بعد وصول ابنينا الى مرحلة الفطام .... فعبرت عن سعادتها بثغاء ضاحك:

_ وإلى ذلكم الحين ...فأنت في حل من أمري ولا تنس بأن الحياة قصيرة.

_ أريد أن أكون وفيا لك وحدك أيتها الحسناء.

_ كلامك يشبه كلام البشر الذي يتكلم عن الوفاء أثناء ممارسته للخيانة ...لك أن تتزوج ما تشاء، فانت زعيم؛ وكل الزعماء معروفون بكثرة الأبناء لأن الأبناء سند لوالدهم، ومفخرة لأمهاتهم ....

_ وربح للأقرع الذي لن يتوقف عن الذبح والبيع ....

_ في انتظار ذلك تمتع بحياتك .... فإنها قصيرة ...وفترة زعامتك ستكون أقصر مما تتصور.

_ كل الأحياء يعتبرون الحياة قصيرة، وحتى كبار السن من البشر يصرحون بأنهم لم يعيشوا ما يكفي عند اقترابهم من محطة المغادرة.

_ هذا إذا كانت الحياة عادية بالنسبة للمخلوقات التي تعيش عيشا عاديا، وتموت بالتقدم في السن أو بالمرض أو بالحرب ...أما نحن فأن البشر يحتاجنا لجيبه ولبطنه في نفس الآن .... وكما اخبرتك سابقا، لا توجد مقابر مخصصة للأنعام لأن مقابرنا تكمن في بطونهم .... البشر يذبحنا في الأفراح والأتراح .... والمال الذي يجنيه من بيعنا يمنحه متعة الانتماء لهذه الحياة القصيرة.

_ أعتقد بأن وقتنا لم يحن بعد.... فأنت في كامل قوتك .... وعليك يعول الأقرع لملء بطون النعاج بما يبيع أو يذبح ...وأنا لازلت في بداية مشواري الإنجابي.

_ لكن مشاكل الأقرع كثيرة، واحتياجاته شتى ...وأخذ شاة إلى السوق أصبحت هوايته المفضلة ...كما يحلو للكلب أن يقول.

_ الكلب بصاص جيد، وإذا ما عاملته كما يحب، فإنه سيسعى إلى إطالة زعامتك على القطيع.

_ وهل تعتقدين بأنني سأتخلى عن الزعامة؟

_ لن تتخلى عنها بمحض إرادتك .... لكنك ستزاح منها إزاحة؛ سواء طال الزمن إم قصر ...لم يثبت التاريخ بأن كبشا مات على كرسي الزعامة .... هل ترى عجائز الاكباش والتيوس الذين لم يتم ذبحهم بعد؟ جلهم مارسوا الزعامة .... وبعد إزاحتهم يحاولون الابتعاد عن الجميع وانتظار السكين في طمأنينة ...

_ تعرفين الشيء الكثير رغم صغر سنك!

_ نظام حظيرتنا مختلف عن نظام حظيرتكم ....

_منكم نستفيد.

_ دع عنك كلام البشر واستمع! نظامنا كان خال من الزعامات، لأن الزعامة ليس سوى قرصنة لإرادة الغير بوسائل متعددة والعنف أولها ...كنا نتشاور فيما بيننا لتدبير مجالات المبيت وإطعام الصغار ...كانت السلحفاة تحدثنا عن الذين ماتوا والكلب يخبرنا بأحوال الأحياء .... وكنا نستفيد من علف تكميلي في الليل ...وكنا...

_ لا تحركي مواجعنا أيتها النعجة! صاح خروف من القطيع المندمج .... فذاك زمن قد ولى .... نحن الآن نعيش في عذاب لن ينقذنا منه سوى السوق أو السكين ...زحام رهيب .... وصغار يتضورون جوعا بعد مصادرة حليب أمهاتهم من قبل الحيزبون .... وقذارة تزكم الانوف .... أنياب الذئب أرحم من هذا المكان.

_ تكلم باحترام عن مكان إقامتك يا هذا .... هل تريد أن تذوق من قروني؟

_ متى شئت أيها الزعيم العشبي ....

_ موعدنا غدا في المرعى ....

_ فليكن ....

انشغلت زوجتي بإرضاع الحملين، بينما انصرفت إلى التفكير في طريقة أؤدب بها هذا الكبش الي تجرأ على نعتي بزعيم العشب .... وفجأة أطل علي طيف أمي .... يا ترى أين هي؟ هل لازالت حية أم ذبحت؟ استبعدت الفرضية الأخيرة لأن الأمهات يخبرن أبناءهن بوفاتهن عبر مراسل سري لا يراه أحد.... كما أن المعني بوفاة أمه يحس بشيء ما ينكسر في داخله ...وتلك إشارة غير قابلة للوصف .... على إيقاع ذكريات أمي غلبني النوم رغم بكاء الصغار واحتجاجات الكبار.

عندما فتح الباب لم نتعرف على العنزة التي تغير شكلها تماما .... بشرة صافية، وشعر مصفف بعناية وثوب طويل.

_ لقد انتهى زمن الرعي أيتها العنزة!... قالت عنزة حقيقية .... قريبا ستلتحقين بتيسك الذي ينتمي لقطيع آخر ...وسيتم اطعام ضيوف الحفل من لحومنا...!

نظرت العنزة باستغراب إلى صاحبة الثغاء، ثم أعرضت عنها وشرعت في مساعدة اخيها على تنظيم خروجنا الذي أصبح صعبا بعد تضاعف عددنا.... الكل يسعى إلى المغادرة قصد استنشاق بعض الهواء الخالي من روائح الغبار ...والبحث عن رزق منعدم في مكان مبيتنا ...الطفل يحمل عصاه ومحفظته الدراسية التي تحتوي على مؤونته اليومية ...والعنزة تصيح فينا وتشتمنا ...وتنبه أخاها الى كيفية التعامل مع الوضع الجديد:

_ سأترك لكم هذا القطيع في الخلاء .... وسأرحل كما رحل أخي من قبل.

قلت لك بأن المسألة مسألة وقت يا أخي .... ستعود للمدرسة فاطمئن!

_ وماذا عن الدروس التي ستفوتني ...؟

_ انت مجتهد كما يقولون .... وستتدارك الأمر بسرعة بعد عودتك.

_ وهل الذين ارتادوا المدارس قبلك يصنعون الصواريخ حاليا ...جلهم عادوا إلى المدشر بطباع سيئة ليتبجحوا بمعلوماتهم التي لا تنفعهم هنا .... ومن بقي منهم هناك يضيع أو يسجن ...قال الأقرع الذي لم يسمع تهديد ابنه بالمغادرة.

خرجنا بانضباط تام لأن الأقرع كان يحمل عصاه، والكلب بجانبه يرفع ذيله إلى الأعلى بمرح قبل أن يلتحق بركبنا، ويشرع في ذهابه وإيابه فيما بيننا نحن الذين كنا نسرع الخطى طمعا في الوصول إلى عشب لم تلمسه أغنام القطعان الأخرى، لأن الجوع لم يرحمنا، والاكتظاظ أتلف أعصابنا.

_هل سمعتم الأقرع وهو يحدثكم عن مكارم الأخلاق؟ قال تيس نلقبه بالشاعر.

_ سر مستقيما أيها التيس المعتوه! ودع عنك سيدك!

_ سيدك أنت لوحدك! أنت الذي ترافقه من المهد إلى اللحد ...أما أنا فسلعة وكفى .... قد يبيعني وقد يذبحني ...

_ يا ليته يذبحك! فقد اشتقت إلى لحم التيوس التي لم أذقها منذ العيد.

_ انت لا تأكل اللحم! اللحم يأكلها أسيادك...أما أنت فتستهلك ما تعافه الأنفس.

حاول الكلب مهاجمة التيس، لكن ضربة نزلت على ظهره فتقوس من الألم وهو ينبح .... لقد كان الاقرع الذي لم يفهم الحوار، لكنه رأى المحاولة الهجومية للكلب.

_ ألم أقل لك؟ تدافع عنه ويضربك .... لماذا تصر على الالتصاق بالأقرع؟

_ إنه صاحبي ومالكي، وأنا أعيش في داره منذ ولادتي .... نحن الكلاب شيمتنا الوفاء.

_ الوفاء مقابل عيشة كلبية!

_ العيش الكلبي أفضل من عيش القطيع .... فنحن على الأقل لا نذبح.

_ هنا فقط! العديد من سكان الأرض يعشقون لحومكم، ويتفننون في طبخها، ويقدمونها لضيوفهم المتميزين .... الذئاب فقط هي التي لا تأكلكم بحكم القرابة فيما بينكم.

_ اتمنى أن تكون من نصيب الذئب المنفرد في هذا اليوم أيها التيس المعتوه.

_ ستتحمل المسؤولية لوحدك ...وسينالك من الأقرع أضعاف ما نلته منه هذا الصباح.

مع اقترابنا من المرعى أسرعنا الخطى، مهرولين نحو العشب، والكلب يحاول كبح جماح بطوننا التواقة إلى ما تهضمه .... تزامن وصولنا مع وصول الكهل بقطيعه ....

_ لماذا أخرجت الطفل من المدرسة؟ قال الكهل مصافحا .... عليه أن يعود إليها .... لقد اتفقنا على ذلك.

_ وهل تعتقد بأن صحتي لا زالت تسمح لي بملاحقة الجديان؟ هو هنا من أجل المساعدة فقط.

_أرسله للمدرسة .... وسأتكفل أنا بالمساعدة.

_ليس اليوم.... غدا ربما .... وبماذا ستنفعه المدرسة؟

_ نفعها كثير .... فجل الذين ذهبوا اليها بنوا مستقبلهم، وأنقذوا أنفسهم من الضياع.

_ذاك عهد قد مضى وانقضى ...مدارس الكبار المسمات بالجامعات أصبحت تخرج العاطلين فقط ...وحتى الذين توظفوا لا يتوقفون غن الشكوى...وقليلا ما يساعدون والديهم الذين جاعوا من أجلهم على مصارعة تكاليف الحياة .... ابن فلان وابن فلانة.....و....المستقبل موجود في بلاد الفرنجة.

_ لأهل الفرنجة ما لنا من تراب ونباتات وبحار وأودية .... وبناء أراضيهم انطلق من مدارسهم .... أرسل ولدك الى المدرسة فهذا شرط فلانة ...وعلينا احترامه ...

_ ومتى كان للنساء رأي يحترم؟

_لقد اتفقنا ولن أتراجع ...وأنت تعرف ما سيترتب عن ذلك .... بعد ايام سيخرج ابني من السجن وزواجه من ابنتك رهين بانتقالهما لبيت ابن عمنا الشيخ مع قطيعه .... ولن تحتاج لمن يرعى قطيعك بعد تناقص عدده ...فجولة منك ومن زوجتك تكفي.

_وماذا سأفعل أنا في البيت رفقة العجوز بعد ذهاب العنزة والقطيع؟

_افعل ما كنت تفعله.... قال الكهل ضاحكا ثم انصرف إلى شياهه.

أحدث خبر الاتفاق المبرم ما بين الأقرع والكهل موجة من الفرح العارم بين صفوف القطيع المندمج ...حتى ان بعض أعضائه لم يصدقوا أذانهم.

_ أبشر أيها القطيع! صاحت زوجتي .... قريبا سوف نعود الى ديارنا.

انتشر الفرح وعلا البشر وجوه كل الذين سمعوا الخبر .... لكن الكلب الأبيض الذي غطت فروته طبقة من الدم المخلوط بالتراب بسبب صراع مجهول، بقي صامتا في طرف المرعى، وكأن الأمر لا يعنيه.

_ أم تسمع الخبر؟ ألست فرحا بقرب العودة للديار؟

_ وهل سيعود الشيخ الذي سكن تحت التراب؟

_ الشيخ لن يعود لكن الحياة يجب أن تستمر في انتظار شفرة مدية أو أنياب ذئب.

_لم يعد الأمر يهمني، فسكناي ستبقى قرب قبر صاحبي، لقد خرجت السلحفاة تبحث عنا، وعندما أخبرتها بما حدث عادت لسباتها رغم أن الوقت ليس وقت السبات.

عند اقتراب منتصف النهار جر الأقرع التيس الذي تشاجر مع الكلب في الصباح، وتوجه به نحو الطريق المؤدية للعمران.

_ إنه ليس لك! قال الكهل معترضا.

_ الذئب لا يفرق بين مالكي الخرفان والجديان ...رد الأقرع ضاحكا.

_ عندما سيتسلم ابني القطيع، سيجد نصف ما حدثته عنه بسببك.

_هو سيأخذ ما سيأخذه بحساب ...وأنا في حاجة ماسة إلى بعض المال.

_ كلنا في أمس الحاجة إليه، لكننا لا نأخذ بسببه رزق غيرنا.

_ الشياه شياهي إلى حين تسليمها بحضور الورثة .... وللحديث بقية ...رد الأقرع وهو يبتعد عن مجال أسماعنا.

غاب الأقرع في ثنايا الطريق الملتوية ليشرع عدد من أعضاء القطيع المندمج في النحيب:

_ لقد أخذ الافرع شاعر القطيع الذي طالما أمتعنا بقصائده.

_ لكنني لم أسمع منه شيئا.

_ لقد صدمته ظروف عيشنا الجديدة ...قالت زوجته منتحبة.... وقد أخبرني بأنه بصدد تهيئ قصيدة جديدة تتحدث عن رحلة تهجيرنا من حضيرة لأخرى

_ وفيم نفعته القصيدة بأبياتها ومعانيها؟ وبألحانها حتى وإن تطوع مطرب لغنائها ...ستطرب لها القطعان في انتظار سيلان الدم على إيقاعات طربية.

_ الأمور هكذا أيها الزعيم الحكيم ...نغني على نغمات السكاكين ونرقص على إيقاعات أنياب الذئاب.

_ يقولون بأن الشعراء تزداد إبداعاتهم كلما تعرضوا لتجارب قاسية.

_ العيش في حضيرة الأقرع لا يعتبر تجربة فقط .... بل هو الجحيم بأم عينيه.

اعتبرت ما فاه به الخروف في حق الحظيرة إهانة لي...أنا الذي ولدت بقربها، وتربيت في أحضانها، ولم أكتشف قذارتها إلا بعد الاستضافة القسرية للقطيع .... توجهت نحو القائل ونطحته بقوة فترنح:

_ ماذا أصابك أيها الزعيم؟ لماذا تهاجمني؟

_ عليك باحترام موطن زعيمك! لا تتحدث عنه بسوء وإلا.... قبل أن أكمل كلامي تلقيت ضربة قوية من صديق الخروف ...لينطلق النزال .... أحسست بضعفي ولمست قوته ...ولم ينقذني من هذا الموقف الحرج سوى ضربات الكهل التي فرقتنا.

_ سوف نستأنف معركتنا في أقرب الآجال ...أقسم بأنني سأعيد تربيتك ...

_ بيني وبينك ساحة التناطح يا زعيم العشب! قبلنا زعامتك الوهمية ...لكنك صدقت الأمر وتماديت في غيك ...نحن لا نزكي شهادة الزور. حضيرتكم عفنة وتصلح لتربية الخنازير .... ولا مكان للمقارنة بينها وبين محل سكنانا السابق ...حضيرة يرفرف الجوع فوق سمائها ...وتجثم القاذورات على أرضها ...يا قطيع الشيخ! هل يرضيكم أن يتزعمكم شاهد زور؟

ارتفعت شعارات تندد بشخصي من قبل القطيع الوافد، بحيث اشتركوا جميعهم في اتهامي بأشياء لا أعرفها عن نفسي، كما أن الشعارات المرددة كانت لا تخلو من سخرية

جارحة .... بحثت عن زوجتي فوجدتها تردد الشعارات بقوة وبجانبها ولدينا يصيحان مثلها ....

_ حتى أنت أيها الشهباء!

_لو كان تحت جمجمتك البشعة ذرة من ذكاء لفهمت بأنني قد تخليت عنك يوم سمحت لك باختيار زوجة ثانية أيها الغبي ! ابحث لنفسك عن زوجة من حضيرتك، فقد ترضى بك إحداهن...أما ّأنا فلن أتخلى عن عشيرتي .... يا زعيم العشب!

انقسم القطيع الموحد إلى قطيعين متقابلين ...الكلب الأبيض كان واقفا بجانب قطيعه ومستعدا للتضامن بشتى الأشكال مع رفاق دربه وقطيع صاحبه ...بينما أعرض الكلب عن المظاهرة وسعى إلى كسب ود كلبة أحد الرعاة.

_ أيها الكلب!... قلت غاضبا...تحمل مسؤوليتك وأوقف هذه الفوضى !

_ وهل أخبروك بأنني أشتغل أجيرا لديك؟ لقد سقطت عليك الزعامة سهوا بفضل والدتك .... انتهى زمنك يا صديقي!

حاولت الاقتراب من الكلب قصد تأديبه ...لكنه كشر في وجهي بعدوانية لم أعهدها فيه من قبل ...فأعرضت عن صراع اعتبرته غير ذي جدوى.

توجهت نحو القطيع الأصلي مخاطبا إياه ومستنفرا لكرامته حتى لا تضيع الزعامة من أبناء البيت:

_ وماذا قدمت لنا حتى ندافع عنك ونصارع من أجلك .... قبلنا بك زعيما، ففضلت زوجتك وولديك على الجميع .... نعتبر بأن منصب الزعيم شاغر ...ومن أراد الزعامة فليرشح نفسه، وليشحذ قرونه .... لا فرق بين القديم والجديد .... فكلنا سواسية في حضيرة الأقرع.

_لقد انتهى زمنك يا صديقي! قالت زوجتي السابقة.

_ ستندمين على قولك هذا ...لأنني سأعطي تعليماتي لكافة الأكباش بمقاطعتك .... فأنا الزعيم.

ابتسمت النعجة بتهكم من قولي والتصقت بالخروف الشاب الذي بارزني.

_عليك بشحذ قرونك من جديد يا خروف العشب! قال الكبش الشاب مزهوا بصحبة من هجرتني ....

كنت أنوي مباغتة غريمي بنطحة من الخلف كما فعلت خلال معركتي الأولى ...لكن الكهل كان قريبا ...والكهل بخيل في كل شيء باستثناء توجيه الضربات الموجعة .... ولذلك اكتفيت بالتقاط العشب تحسبا لليل طويل قد يتم فيه طردي من المكان المخصص للزعيم .... كنت منهمكا في الرعي عندما ارتفع نباح الكلاب ...

استغل الذئب اطمئنان الرعاة وقطعانهم وبسرعة البرق اقتحم التجمع وخنق جديا ثم ولى هاربا وهو يعوي من السرور:

_ لائحة المخنوقين ستكون أطول مما تتصورون ...وأبلغوا سلامي لكلابكم الوفية.

رغم غضبي الشديد من زوجتي التي هجرتني، شعرت بتعاطف كبير معها وأنا أراها تحاول إنعاش أحد حمليها الذي فارق الحياة بينما كان الثاني يحاول الرضاعة معتقدا بأن أخاه نائم فقط .... اقتربت منها مواسيا .... فأعرضت عني وتوجهت نجو صاحبها الجديد:

_أهكذا يكون الزعماء؟ تغازلني ...وتتغني بجمالي ...وعندما يطل الذئب تختفي وراء النعاج ...تبا لك تبا!

_لم أنتبه لقدوم الذئب اللعين ...لقد فعل ذلك في لمح البصر ثم اختفى ...كما أن هذا الخروف ليس من صلبي ....

_ هذا كلام البشر الذي ينسب أصله للأب ...أنت لا تصلح لي لأنك لا تعرف بأن عالم الخرفان يعتمد على الأم في كل شيء فابتعد عني ...

النعجة الحسناء لا تريد مفارقة ولدها، والطفل الراعي يبكي خوفا من بطش والده، والرعاة يلوم بعضهم البعض على التفريط في الحراسة المشددة، وكلب الشيخ واقف بين أفراد قطيعه الأصلي المتضامن مع النعجة الثكلى، بينما كلب الأقرع يراقب المشهد ببلادة وذيله نازل من الذل الذي قاده الى شرود لم يوقظه منه سوى ضربة قوية نزلت على ظهره فتقوس من الألم ولم يستطع التنفس ...لأن الضربة كانت ضربة الكهل:

_ ما الفرق بينك وبين النعجة أيها الكلب الذليل ...تمشي مزهوا كطاووس والذئب يفعل في قطيعك ما يشاء ...أنت لا تستحق الخبز الذي تأكله ....

_ ويا له من خبز! رد الكلب وهو يمشي بصعوبة نحو القطيع ....

رغم حقدي على الكلب الذي استقوى علي منذ قليل لم أجد بدا من التعاطف معه.

_ من يلزمك بالبقاء مع البشر أيها الكلب؟

_ إنه الوفاء أيها الزعيم المخلوع ...وفاء لمخلوقات أنانية تطعمنا بالامتنان، وتهيننا بالإطعام ...حتى سلمنا بانهما متلازمتان من متلازمات الحياة.

_حتى في انتخاباتهم لا نرى صورك على منشوراتهم ...أنت الذي تتغنى بالوفاء .... في لعبتهم السياسية يقدمون للناخبين صور جميع الحيوانات باستثناء صورتك ...هم يحثون النا س على التصويت لفائدة الطيور والجمال والبغال والجياد والفيلة والقطط والبغال والحمير ...ولم يسبق لأحد منهم أن قدم صورتك كرمز انتخابي.

_ رموزهم السياسية كلها كذب في كذب ...أما وفاؤنا نحن فصدق على صدق ...الصدق لدى البشر نسمع به ولا نراه ...كثعلب الأحجار يختفي أكثر مما يظهر ...وأثناء اختفاءه يأكل الدجاج.

_ لو كنت مكانك لتوجهت نحو الغابة ...ولطلبت اللجوء الاجتماعي لدى الذئاب ...فهم أبناء عمومتك ...ويتبادلون مع البشر الكراهية والغارات .... وبينهم ثأر يجبر بالدم فقط .... ولا أحد يذكرهم بسوء.

_ للكلاب نصيبهم من احترام البشر...قال الكلب الأبيض ...صاحبي كان عطوفا علي، ومحسنا إلي ...ومن واجبي الاحتفاظ بذكراه .... وما دمت حيا فلن أنساه.

مر اليوم بشكل عادي بعد أن فعل الذئب فعلته، أكد الرعاة بأنه لن يعود في هذا اليوم على الأقل. انصرفنا للرعي لملء بطوننا حتى لا يهجم الجوع عليها في منتصف الليل ...والجوع كافر كما يقول بعض البشر، ومضاعفات الإصابة به لا يعرف أحد نتائجها .... وصل الأقرع متأخرا الى منزله كعادته عندما يزور المدينة ...وبعد وصوله بقليل سمعنا صراخا وعويلا ليحل الطفل ضيفا علينا بعد أن حمله والده مسؤولية خنق الحمل

.... حاولنا تيسير أمور مبيته معنا كما كنا نفعل مع أخته .... لكنه لم يتأقلم مع الوضع واستمر في الصراخ ....

_ إناث البشر أشجع من ذكورهم .... ومع ذلك ينفرد ذكرانهم بالتغني بالشجاعة والصبر على الشدائد دون النساء.

_كم عدد المرات التي باتت فيها العنزة بين ظهرانينا ...كنا نحس بها تبكي ...لكنها لم يسبق لها أن رفعت عقيرتها بالصراخ.

ارتفع بكاء الطفل لتطل علينا الحيزبون وابنتها ...وبإصرار فتحت باب الحظيرة وتوجهت نحو ابنها ليظهر الأقرع خلفهما:

_هيا يا بني ...! سنذهب الى الدار .... وغدا لن ترعى الأغنام بل ستعود الى مدرستك.

حاول الأقرع منع زوجته عما هي بصدده مستعملا قبضته، لكنها تصدت له بقوة نلاحظها لأول مرة ونظرت إليه بتحد سافر:

_ ولدي سيبيت في داري ولن يرعى أغنامك التي لا يستفيد منها أحد سواك!

_ومتى كان للنساء رأي أمام الرجال؟

_ عندما يكون الرجل رجلا حقا ...أما أشكال الرجال وتصرفات السفهاء فقد سئمت منها.

رفع الأقرع عصاه ليضرب الزوجة الثائرة، لكنها أمسكت بالمعصم الذي يحمل العصا، ودفعت صاحبه بقوة ليسقط بين الأغنام ولتنزاح عمامته عن رأس كان سببا في تسمية التصقت بصاحبه....

_ تدفعينني يا ابنة المتسول! والله لأربينك!

قام الأقرع باحثا عن عصاه، لكنه تلقى ضربات متتالية من زوجته التي جرحت كبرياؤها عند ذكر والدها ...لقد تحولت الى لبؤة شرسة وهي تستل من سياج الحظيرة غصنا يابسا به نتوءات حادة .... سال الدم من رأس الأقرع وزوجته مستمرة في توجيه

الضربات له ...والطفل يبكي ولا يدري ما يفعل ...والعنزة تحاول تخليص والدها من قبضة أمها، لكنها تفعل ذلك بتكاسل واضح.

_ أنت طالق يا سليلة الجوع! قال الأقرع بعد استعادته لتوازنه.

_ ضرس مسوس وزال من فمي ...فابحث لنفسك عن مكان تعيش فيه أيها المتشرد المجهول الأصول.

_ أسلافك الجوعى باعوا لي كل ما لديهم مقابل قبولي بك.

رد فعل الحيزبون كان فوريا على كلام الأقرع المهين الذي أصبح يدافع عن نفسه بعد أن ازدادت الحيزبون شراسة لتتخلى العنزة عن محاولة الحيلولة دون ذلك وانضمامها الينا كمتفرجة على نزال بشري في مكان كان مخصصا لمعارك الشياه فقط.

الحق يقال ...لقد استمتعنا بمشهد غابت فيه شروط المعركة المتكافئة بمقاييس الحيوان .... البشر يستغلون كل ما لديهم في نزاعاتهم ...يستعملون أفواههم لإطلاق قذائف الشتائم الفاحشة، كما يستخدمون كل أعضائهم عند النزال ...على عكسنا نحن الذين نتناطح برؤوسنا، والكلاب التي تتعارك بأنيابها ...أما المخلوقات التي لم نسمع عن عراك فيما بينها فهي السلاحف التي تملك رؤوسا صغيرة .... لكن دماؤها باردة.

طال الشجار المصحوب بالشتائم العالية، وبكاء الطفل وصل صداه الى المنازل المجاورة لساحة الوغى ...بعد مرور بعض الوقت لاحت مصابيح في الظلام وهي تقترب من الحظيرة .... ليتوقف صراع الأجسام بفعل تدخل الجيران ...ولينطلق مسلسل الاتهامات بين الأقرع وزوجته.

_ العنوا الشيطان! فأنتم كبار في السن.

_ ما دخل الشيطان في الأمر؟ قال تيس كان قريبا من المعركة ...

_ البشر ينسبون كل أفعالهم للشيطان، رغم أنهم يقترفونها عن سبق إصرار وترصد .... أجابه كبش من القطيع المندمج.

_لا يوجد هنا شيطان سوى هذا النذل يا ابن عمي! نحن نرعي وننظف ونعيش البؤس صابرين ...وهو يبيع ويستمتع ويعود إلينا دائما خالي الوفاض ...كان سببا في

هجران ابننا البكر، وتاجر في عرق ابنته من خلال كرائها كخادمة وهي على أبواب الزواج ...وها هو يحرم ابنه من المدرسة ويرميه في الحظيرة لأن الذئب خنق حملا وسط الرعاة.

_ بينكم أبناء ...فلا تفسدوا عشكم وأنتم في خريف العمر!

_لقد أتلف الأقرع كل شيء يا ابن العم! لم يعد في العمر خريف ولا شتاء.

_ لم تعودي على ذمتي يا ابنة المتسول ويا قليلة الأصل!

_ حسبك يا هذا...! قال أحد الجيران ...عمنا لم يكن متسولا في يوم من الأيام .... لقد كان رجلا شهما وكريما .... وما تنعم فيه من خيرات تبعثرها على أهوائك كانت بفضله .... فأغلق فمك أو انصرف

_ وما دخلك أنت أيها الفضولي؟ أنا وزوجتي ...وأنت ما دخلك؟

_ لقد صرحت بتطليقها ...فانصرف! نحن نعرف صاحب الأصل من عديمه.

_ إذا ما ثبت ارتكابي لأي خطأ في حق هذا الرجل يا أبناء العم فإنني مستعدة لمغادرة المدشر حافية القدمين ...لكنه لم يراع عشرة عمر مر جلها في المشاكل.

باءت محاولات إصلاح ذات البين بين المتخاصمين بالفشل، وبما أن الطلاق الشفوي يعتبر طلاقا رسميا في تقاليد البشر .... فقد اضطر الأقرع لمغادرة منزل كان يعتبره في ملكه، بعد استضافته من قبل الكهل الذي عنفه لفظيا وهما ينصرفان ...والعهدة على الكلب الذي نقل الحدث ... على تسرعه في تطليق زوجته:

_ ومن سترضى بك وأنت على أبواب الشيخوخة ...؟ وهل تعتقد بأن تلك التي تستهلك شياهك سترضى باستقبالك وأنت خالي الوفاض؟ وماذا لو قررت زوجتك الكلام؟

بعد انصراف الأقرع كلاجئ لدى الكهل، تفرق الجمع، وعادت الحيزبون رفقة ابنتها وولدها إلى بيتها.... عم صمت قصير للتأكد من خلو المكان ... ثم انطلق التعليقات الساخرة حول جبروت الأقرع الذي انهار أمام أعيننا:

_اليوم غادر أقرعكم البيت الذي كان يعتبره في ملكه .... وغدا سيغادر زعيم العشب زعامة القطيع.... قال الكبش الذي أخذ مني زوجتي.

_ لقد قلتها بعظمة لسانك ...فأنت والحيزبون متشابهان في الشجاعة ...هي وجدت أبناء عمومتها ...وأنت تعتمد على وساوس الأنثى ....

_ غدا نلتقي يا زعيم العشب!

_غدا نلتقي يا علبة الغرور !

على إيقاع التهديدات المتبادلة نمنا، وعليها أصبحا لكن المعركة الحاسمة لم يكتب لها الوقوع لأننا لم نخرج الى المرعى إلا بعد وقت متأخر .... كان ذلك تحت إشراف الحيزبون وابنتها اللتان أخذانا في جولة الى مرعى قريب من المدشر تحيط به حقول لا يمكن الاقتراب منها بفعل يقظة الراعيتان .... تبادلت الحيزبون وبعض الجارات كلاما عابرا حول ما وقع أمس ...واقترحت إحدى النساء ضم القطيع الموحد الى قطيع أسرتها بشكل مؤقت، لكن الحيزبون ردت عليها بامتنان:

_ يا ابنة الخال! لقد كان في جوار الغابة ذئب واحد ...أما الآن فقد أصبح فيها ذئبان الأول يخنق ويختفي مكتفيا بعملية واحدة ...والثاني يسرق ولا يريد أن يشبع ...لأن في المدينة نار لم تتوقف عن التهام كل ما كنا نملكه.

_ يقولون بأنه متزوج من واحدة هناك ...وهي التي تستهلك ما يجنيه من حضيرتكم وباقي أنشطته ...

_ يا ليته فعل ...! كنت سأرضى بالأمر ما دام شرعيا ...التي تأكل منه تعرف بأن ماله سينقضي، ولن ترضى بإتمام حياتها في مدشر البؤس .... ستبحث عن أضحية أخرى .... وما أكثر الأضحيات البشرية.

تمت إعادتنا قبل الأوان، وأثناء ذلك صادفنا الطفل وهو يحمل محفظته عائدا إلى الدار بعد أن قضى يومه في المدرسة، وأمام باب المنزل المغلق وجدنا وفدا بشريا ينتظر. لقد كان الوفد مكونا من إمام المسجد وبعض أقارب الحيزبون لأن الأقرع لا أقارب له.

بعد استفادتنا من وجبة اضافية أفضل مما كنا سنرعاه في الأحراش أطل علينا الكلب الذي تتبع المفاوضات والتي خلصت الى النتائج التالية:

_ سيحظر الأقرع ذبيحة، وسينحرها على باب الدار طلبا للصفح وللزواج من امرأته التي طلقها وهو في حالة غضب.

يلتزم الأقرع برعي القطيع، والإقلاع عن زياراته المتكررة للمدينة.

_عدم إخراج الطفل من المدرسة مهما كانت الظروف.

_ منح الصلاحية للعنزة في قبول أو رفض ابن الكهل كزوج بعد خروجه من السجن.

بعد انتهاء تقرير الكلب انطلق النقاش بيننا في جو مشحون يسوده الترقب .... لقد أصبحت زعامتي مهددة بعد انضمام زوجتي السابقة للفريق الآخر.

_أعتقد بانه يجب علينا تنظيم أمورنا بعد عودة المياه إلى مجاريها.

_ لا حاجة بنا لذلك، فنحن ننتظر مغادرة هذا المستنقع القذر والعودة إلى ديارنا .... قالت النعجة التي هجرتني.

_ يا ابنة الأصول! ردت نعجة من فريقي ...لست سوى نعجة كباقي النعاج تأكلين العشب وترافقين الأكباش إن هم رضوا بك، وتلدين الخرفان ...لكن العيب ليس فيك ...العيب في زعيمنا الذي أعطاك أكثر من قيمتك.

رد النعجة كان سببا لنشوب معركة بين النعجتين انتهت بخسارة زوجتي السابقة التي توارت خجلا من هزيمتها النكراء في نزال قصير ....

_ يمكنك الاستنجاد بأحد الاكباش الذين يطلبون ودك من قطيعك ...فهم متساوون معك في الشجاعة وفي فن القتال .... أضافت المنتصرة ...

ساد جو من نشوة الانتصار التي أنستنا جوعنا وتعبنا ...اغتنمت الفرصة وهاجمت غريمي الذي استسلم وغادر وسط الحظيرة لتنطلق الهتافات باسمي.

أعلنت زواجي من النعجة التي هزمت زوجتي السابقة التي حرمت على الأكباش الاقتراب منها ما دمت زعيما ...معتقدا بأن زعامتي ستطول ...ونكاية بهاجرتي تزوجت ثانية في نفس الليلة ...رغم تضايق أكباش من قطيعي .... وامتعاضهم الذي عبروا عنه بثغاء احتجاجي ...

في الصباح أطلت علينا العنزة بلباس العمل الذي رافقته لمسة من أناقة ظاهرة .... وأثناء سيري في مقدمة القطيع وزوجتاي بجانبي ...لاحظت الراعية الشابة هذه التشكيلة الجديدة فخاطبتنا باستهزاء:

_خرفان البؤساء لا يهمهم سوى فعل ذلك...يا ترى من منكما المفضلة لديه؟

_ لست أدري هل سيكون كبشك كوالدك ...أم أنه سيكون أرق منه ....

اعتقدنا بأن العنزة قد فهمت تعليق النعجة ...وبأن هذه الأخيرة سترد .... لكنها طلبت منا الإسراع نحو المرعى، وهناك وجدنا الأقرع ينتظرنا وبجانبه شاب تظهر عليه علامات التمدن ....

_ انه الأحول ابن الكهل أخبرنا تيس عجوز ...لقد تعرفت عليه من عينيه.

_ يقولون بأنه كان مسجونا .... فهل السجناء يخرجون وأثار النعمة بادية عليهم وكأنهم جاؤوا من بلاد الفرنجة .....؟

_ هناك يأكلون وينامون ويستحمون .... ولا يشتغلون ....

_ حري بعدد من الرعاة التوجه نحو السجن ...فهناك ستتحسن أحوالهم ....

_ هناك سيفقدون حريتهم ....

_ وهل العيش في مدشر البؤس يعتبر حرية؟ إنه سجن حقيقي رغم عدم توفره على أبواب.

تلعثمت العنزة عندما نادى عليها والدها:

_ تعالي يا فلانة!

امتثلت العنزة لنداء والدها، وهرولت نحوه مسرعة بخجل أضفى عليها جمالا لم نعهده فيها. أشرت للكلب ففهم قصدي وتبع العنزة من أجل التقاط ما سيدور من حديث بينها وبين أبيها .... انصرفت للرعي مطمئنا على زعامتي لكنني لاحظت بأن أحد سكان الحظيرة الأصلية يتغزل بزوجتي السابقة التي عاقبتها بحرمانها من مصاحبة الأكباش،

وعندما ذكرته بقراري ...دعاني للمبارزة وهزمني في مدة قياسية بسبب ثقتي في نفسي التي تجاوزت الحدود.

ارتفعت الهتافات معلنة نهاية عهدي بالزعامة وتنصيب الزعيم الجديد الذي تربطني به علاقة خؤولة .وقد راعى الزعيم علاقة الدم وهو يتلقى التهاني قبالتي أنا الذي أصبحت من متلاشيات الأغنام .فبعد استماعه للكلب الذي قدم له تقريرا عن المهمة التي كلفته بها ، طلب من مساعديه سحب زوجة مني وتركوا لي واحدة فقط ...لكن هذه الأخيرة أعلنت عن هجرانها لي لأنها لا تقبل أن تكون ممرضة تداوي جراح المهزومين على حد قولها ....كما أخبرت بأدب جاف بأنه لم يعد مسموحا لي بالخطابة في القطيع أو عقد الاجتماعات كيفما كان نوعها ، وبأن مكان نومي قد تمت مصادرته ،وبأن كل حركاتي مراقبة من قبل البصاصين ، وبأن الكلب ينتظر إشارة من الزعيم الجديد لمهاجمتي بحكم سوابقي معه .

أصبحت أنام في أقصى الحظيرة قرب سياج يدخل منه البرد كما يشاء، وأصابني إسهال حاد جعل الكل يتجنبني .... وخلال ذلك كانت الاستعدادات لزواج العنزة من الأحول جارية على قدم وساق بعد أن ابتز ابن الكهل الموافقة من الأقرع المهدد بدخول السجن ...الكلب الذي كان يخاطبني باحترام اتخذ مني موضوعا لإضحاك القطيع ...وعندما يقترب مني يهمس لي:

_ قريبا سوف يذبحونك يا زعيم العشب! وسأكون سعيدا بالتهام بعض أجزائك رغم أن لحمك عفن بفعل الإسهال.

_ ستموت قبلي أيها الكلب الحقيقي ...قد تدهسك سيارة كما دهست والدتك ...وقد يقتلك الأقرع بضربة من عصاه .... كان الكلب يسارع إلى عضي كلما ذكرت أمه فالكلاب أيضا يحبون أمهاتهم.... والبشر.

امتلأ جوار الحظيرة بالمدعوين من كل الأعمار. تعرفنا بصعوبة على بعض الرعاة الذين اغتسلوا وتهندموا للمشاركة في حفل زواج زميلتهم. لم يسمح لنا بالخروج بعد ملء المجاور بعلف مناسباتي، وبين الفينة والأخرى يطل علينا الأقرع والكلب يتبعه، وعن كل زيارة يأخذ منا واحدا لترتفع الأهازيج والزغاريد المقرونة بانتشار روائح طبيخ اللحم ... ففهمنا بأن الذين خرجوا لن يعودوا....

بعد العرس تكفل الأقرع بالإشراف على رعينا وتوقف عن السفر نحو المدينة، لكن تجار المواشي كانوا يسافرون اليه في المرعى، وعند كل زيارة يبيع فردا منا، لا فرق عنده بين العنزة والشاة ولا بين المنتمين للقطيع الأصلي أو القطيع المندمج ...ذات مرة اقترحني على تاجر فأعرض هذا الأخير عني، وبحث عن غيري. واستمر مسلسل البيع أمام احتجاجات الكهل في المرعى والحيزبون في البيت. لكن الاقرع لم يكن يبالي.

ذات صباح زارنا زوج العنزة ووالدها وتم فصل القطيعين ليسوق الزوج القطيع الاصلي الى حضيرة الشيخ، وكنت انا من المرحلين على اعتباري هدية من الأقرع لابنته .... فرحة ما تبقى من القطيع العائد الى حضيرته الاصلية كانت لا توصف ...من الاغنام من غنى ومنهم من رقص، وحتى الكلب الأبيض التي تحول الى شبح ظهر عليه بعض الانشراح وهو يتبع بمشقة القطيع المسرع الذي تذكر الطريق ....

وجدنا العنزة في استقبالنا وبعد أن مسحت القطيع بعينيها المشرقين ابتسمت عند رؤيتي وخاطبتني قائلة:

_ ألا تريد مفارقتي أيها الشقي؟ لقد حملتك يوم ولادتك .... وها أنت تتبعني الى داري.

_ إنها دار شيخنا وليست بدارك .... صرخت زوجتي السابقة.

أعرضت العنزة عن ثغاء النعجة ففهمت بأن صاحبتنا قد فقدت لغة التواصل مع الأغنام بعد زواجها.

_ هذه هي هدية والدك! قال الزوج بأسلوب لا يخلو من سخرية، وهو يشير إلي.

_ أنا من طلبت منه ذلك ...فبيني وبين هذا الكبش علاقة خاصة ...لقد حملته من الخلاء يوم ولادته ...ورأيته ينجو من أنياب الذئبة الشهباء وهو حمل صغير ...كما أنه تزعم القطيع مدة لا يستهان بها ...ومرضه هو سبب تخليه عن الزعامة ...تجاهل الزوج تعليقات زوجته وشرع في إدخالنا إلى الحظيرة، وهناك سيطر على شعور بالقنط، واحساس بالاختناق، وحنين إلى موطني الأصلي .... هي طبعا تتوفر على بعض التجهيزات المفقودة في حظيرة الأقرع ... لكن الحظيرة تبقى حظيرة حتى وإن طليت جدرانها بنباتات الرائحة الطيبة.

_ أرأيت حظيرتنا؟ قالت زوجتي السابقة بفخر.

_ هي حظيرة وكفى أجبتها متبرما وأنا أبحث عن مكان أرتاح فيه.

أعرضت عني النعجة وانصرفت لتهنئة الذين نجوا من البيع والذبح وعادوا إلى موطنهم الأصلي، لم تمض مدة طويلة حتى حضر الزوج يحمل كيسا، وبعد أن أفرغ محتواه في المجاور المعدنية الملونة اكتشفت بأن ما تم تقديمه لنا ليس سوى بعض العشب اليابس الذي يستعمله الكسابون في حالة الطوارئ.... فلم أجد بدا من القهقهة:

_ أهذه هي جنة الحظائر؟ طعام الأقرع أفضل من طعام حظيرتكم.

_ إن أعادوكم للحظيرة ...فمن يعيد إليكم الشيخ؟ تساءل الكلب الذي تحول الى شبح قبل أن يتهاوى ميتا على عتبة حظيرة سيده.

تأثرنا جميعا لوفاة هذا الكلب الجميل الذي حرص على القيام بواجبه بتفان وإخلاص قل نظيرهما.... وبعد التخلص من جثته تم الإتيان بجو صغير لا يختلف عن الحملان من حيث الجمال.

_ كل المخلوقات تولد جميلة، ومرورها فوق الأرض يكسبها جمالا إضافيا، أو بشاعة استثنائية .... كل حسب ظروفه ....

_ لا تمثل علينا دور الزعيم الحكيم الذي رآكم تجارب عديدة في الحياة .... فما اتخذ في حقك من قرارات هناك، ستبقى سارية المفعول هنا .... ردت زوجتي السابقة بجفاء.

_ في حظيرة الأقرع كان كل سكانها يتمتعون بحرية التعبير على الأقل. حظيرة الشيخ ليست سوى وهم سوقتموه بشكل قوي ....

لم أكمل جملتي حتى تلقيت نطحة من أحد الأكباش الذي كان يتلافى المشاكل خلال أقامته في حديقة الأقرع، وكان يؤيدني في كل ما أقوله.

_ حتى أنت يا هذا؟

_هذا هو زوجي الذي سينظم أمور حظيرتنا .... وعليك بالانضباط التام ...لأن أساليب العقاب هنا كثيرة ومتنوعة ....

كتمت الإهانة وانشغلت بأكل ما توفر .... وشيء ما يصرخ في داخلي بأن الأمور ستتغير حتى أرد الدين.

مكثنا في الحظيرة الجديدة عدة أيام ، نأكل ما يقدم لنا ونثغو كل حسب طاقته ومكانته في المكان ،إلى أن تم التعاقد مع راع جديد لأن الزوج انخرط في مهنة أخرى غير الرعي ...بين الفينة والأخرى كانت العنزة تطل علينا حاملة بعض الطعام أو الماء ...وتمازحني مع تفضيلي ببعض المأكولات ...وفي اليوم الأول لخروجنا صحبة الراعي الجديد هرولنا مسرعين وكلنا شوق الى ملاقاة القطعان الأخرى التي افتقدناها ...هناك وجدت الاقرع يرعى قطيعي الأصلي وقد تناقص عدده ، والكلب كما تركناه لا يفارق صاحبه ,وبين الفينة والاخرى يتلقى منه ضربة أو ضربتين ...فيبتعد منه عاويا ثم يعود بعد ذلك بقليل ....ما إن رآني حتى اقترب مني وقال ضاحكا :

_ ألم يذبحوك بعد؟ يا زعيم العشب!

حدثني نفسي بنطحه ...لكنني حسبت العواقب فأحجمت عن ذلك وانخرطت في الرعي مصمما العزم على استعادة قوتي ....

توالت الأيام رتيبة في حظيرة لا برد فيها لكن الجوع يسيطر عليها عندما يعسعس الليل. الراعي الجديد كان متقنا لمهنته يصيح أكثر مما يضرب، ويدلل الجرو الصغير الذي بدأت تظهر عليه آثار الكلبنة. هواء الخلاء وعشبه كان لهما أثر طيب على صحتي، لكنني حافظت على وضعيتي ككبش عادي لا يسعى إلى زعامة ولا يرجو سوى الهدوء.... حاولت بعض النعاج التقرب مني، لكن خوفهن من بطش زوجتي التي أصبحت زعيمة بالوكالة عن زوجها جعلتهن يتراجعن وينتظرن رجوعي إلى كرسي الزعامة .... لكنني لم أفعل.

غابت عنا العنزة أياما عديدة، وعندما أطلت علينا ... كان بطنها منتفخا ....

_ العنزة حامل ...وقريبا ستلد جديا سينضم الى فيالق الرعاة.

_ لا اعتقد ذلك ...فزوجها قد تعلم في السجن وسيسهر على تعليم سلالته مهما كان جنسها.

_ دعونا من الخوض في تفاصيل حياة البشر .... فمشاكلنا يجب أن تكون لها الأسبقية ...

_ لا مشاكل لدينا .... فالخلاء لنا، والحظيرة تحمينا من البرد، وحياتنا نعيشها كما نشاء ....

_ كما يشاء البشر المتحكم في رقابنا ...فسكاكينه تنتظر.

عشت الحياد بحكم موقعي الجديد ، عندما يسألني الحملان أجيبهم ،وأعرض عنهم عندما يدور الحديث حول الزعامة ..وذات صباح منعت من الخروج فاعتقدت بأنني مذبوح أو مباع لكن الأمر لم يكن كذلك ...لقد تم تخصيص مكان منعزل لشخصي ، وعوملت معاملة تفضيلية من ناحية الأكل والنظافة ، وبين الحين والآخر يتم تزويدي ببعض المكملات الغذائية التي أثرت على جسمي ، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت علي آثار النعمة ، وأصبحت مغبوطا من قبل القطيع الذي يمضي يومه متسكعا في الأحراش ويعود بكثير من التعب وبعض الغذاء الذي لا يقاوم جوع الليل ...وأنا أستمتع

بوافر الغذاء وهم ينظرون إلي بحسد ولا يستطيعون الاقتراب مني بحكم مكاني المنعزل .

_ يا زعيم العشب! هل لك أن تجود علينا ببعض ما فضل لديك!

_تعال وخذ ما تشاء لك وللقطيع! فلدي ما يكفي وزيادة ...

_ لكننا لا نستطيع الوصول إلى الخيرات التي تستمتع بها ...

_ وأنا لا أعرف كيف أوصل لكم منها .... هذه إرادة البشر ...لو أنني أعرف طريقة لتقاسم ما لدي لما بخلت ...

_ شكرا على كلام الخير ...مأكولاتك التي تستمتع بها سوف يكون لها ثمن ...فالبشر لا يعطي شيئا بالمجان.

استمر الوضع كما هو عليه، وبالغ زوج العنزة التي لم تعد تظهر في إكرامي ...وقد اعتقدت بأنني أعيش أزهى أيامي ...وفي هذا اليوم وبعد خروج القطيع وطلوع النهار، سمعت زغاريد كتلك التي كانت العنزة تطلقها عندما تكون منشرحة لوحدها في الخلاء وبعد ذلك أطل علي الزوج والأقرع والكلب يتبعهما، فاعتقدت بأنهم سيأخذونني إلى السوق قصد بيعي لكن الكلب أوضح السبب من هذه الزيارة:

_ مرحبا يا زعيم العشب! اليوم ستحقق أمنيتي في التهام جزء منك كما توقعت ...سيذبحونك بمناسبة حفل ازدياد ابنة العنزة ...والكل منشرح لذلك .... وما أكلته من البشر سيكون ثمنه أنت .... والكلام ليس لي ...بل هو لامك هل تذكرته؟

سمعت صوت أمي وانا أقاوم الاقرع وصهره وهما يحاولان مدي على الارض وتوجيه رأسي نحو اتجاه معين وسكين لامعة شفرته قبالة عيناي، وضربة تلقاها الكلب من عصا الاقرع لأن الكلاب يجب ألا تقترب من الذبيحة بحكم نجاستها ...فلم أجد بدا من التضامن معه وأنا أرى المدية تقترب من عنقي، وعلى مقربة مني ظهرت سلحفاة تتابع المشهد بفضول.... فتذكرت ما قيل في شأنها وأنا أغادر نحو أمي التي لاحت ملامحها وسط طريق يحيط بها نور أبيض من الجانبين.

الإمضاء: كبش ازداد قبل ولادة المسيح ...ومات قبيل الحرب العالمية الثالثة.